نجيب الكيلانى

الظل الأسود



كتاب المختار

روايات إسلامية

٤

الظل الأسود

نجيب الكيلاني



كتاب المختار

(الطبعة العشرون)

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/٢٤٠١٧

أسسه حسين عاشور عام ١٩٧٩
٣ حارة الجمل - المتفرعة من ميدان السيدة زينب - القاهرة
تليفون ،فاكس ٣٩٢٢١٥١

شخصيات الرواية

- بعض شخصيات الرواية :
- إياسو : إمبراطور الحبشة منذ عام ١٩١٣م (شاب)
- ميكائيل : والد إياسو – مسلم متنصر – حاكم مقاطعة «وللى» بالحبشة
- شو أرقاش : زوجة ميكائيل وأم إياسو وابنة الإمبراطور منليك
- مالفن : شقيقة إياسو
- زوديتو : خالة إياسو – عينت إمبراطورة للحبشة لفترة
- غوغسا : حاكم مقاطعة وزوج الإمبراطورة زوديتو
- الرأس تفري : حاكم مقاطعة وزوج مالفن، عين إمبراطورًا للحبشة بعد زوديتو
- زوجة إياسو الأولى
- زوجة إياسو الثانية
- طباخ تفري
- وصفيات وخدم
- الأنبا ميتاوس : مطران الحبشة فى فترة حكم إياسو .





بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل ١

قال الشاب « إياسو » في اشمئزاز بالغ :

– أبتي .. إنني أكاد أختنق . لشد ما أكره هؤلاء القساوسة ، إنهم يتحدثون كثيرًا عن الله ، وملكوت السماء ، وعن المسيح الذي حمل على كاهله آلام البشر وخطاياهم حتى يحقق لهم الغفران ، لشد ما يخنقني يا أبتاه أن أرى تلك الأقنعة الزائفة على وجوههم . إن عيونهم تبرق بالشر وهم يتحدثون عن الرحمة ، ويطنبون في الكلام عن الاستقامة والخلق القويم مع أن رائحة الخمر تفوح من أفواههم ، ولا يفتأون يرددن عبارات الأخوة والتسامح وبركات الله ، وتاريخهم كله آثام سود ومجون وعربدة ، ومشاجرات بين بعضهم بعضًا . . .

هب الإمبراطور الشاب إياسو واقفًا وقد احتقن وجهه الأسمر ، وبان الضيق والأسى في عينيه ، وهتف في إصرار : «لا .. لن أقابل « الأنبا ميتاوس»

قال أبوه ميكائيل محذرًا : « أي ولدي العزيز إياسو .. لا تنسَ أنك نجاشي الحبشة وإمبراطورها العظيم ، ولا تنسَ في الوقت نفسه أن « الأنبا ميتاوس » هو مطران الحبشة وصاحب النفوذ الضخم في أرجاء البلاد ..»

تنهد إياسو في حنق وقال : «لقد برمت بهذا النفاق .. إنني أكرهه .. أكرهه ..»

ابتسم ميكائيل في هدوء وقال : «وأنا مثلك .. أكره هؤلاء الأوغاد .. كما أكره اسمي الجديد «ميكائيل» ما أروع ذلك الاسم القديم «محمد على» أيام كنت أحكم مقاطعة «وللو» .. لكن عليّ أن أحتفظ باسمي الجديد حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا .. من كان يظن

أن ابن محمد على سيكون إمبراطورًا للحبشة؟؟ إنه لشيء غريب يا ولدي، إن الأقدار تلعب دورًا خطيرًا .. فلنصبر ولننتظر .. فأنا وأنت الآن، كل واحد منا يؤمن بالديانة المسيحية .. هذا هو المفروض .. والله ينظر إلى قلوبنا، ويعرف العقيدة الكامنة فيها .. والآن يجب أن تحسن التصرف .. أتفهمني؟؟ فلتسمح فورًا بلقاء «الأنبا ميتاوس»، وليسمع منك كل ما يطمئن باله، ويريح فؤاده، وحذار أن يكشف عن نواياك .. أنا لا أخاف على حياتك أو على حياتي، بل كل ما أفكر فيه هو أولئك الملايين من المسلمين الذين يسكنون روابي الحبشة وسهولها وقراها ومدنها .. إن هؤلاء أمانة في عنقك ستُسأل عنها أمام الله ..يجب أن تضحي بكل شيء من أجلهم يا «إياسو» الحبيب .. هلمّ .. هلم يا ولدي ..»

واندفع الأنبا ميتاوس نحو قاعة العرش الإمبراطوري. وكان الجو حارًا والعرق يسيل على جبينه الأسمر، ووجهه المنتفخ، وهو يشعر برغبة جارفة فى أن يحك لحيته الكثة التي تناثرت فيها شعرات بيض. ومع ذلك فقد هرول بأرديته السوداء الفضفاضة الثقيلة، تلك التي تزيد من شعوره بالحر والضيق، وما أن وقف قبالة الإمبراطور الشاب «إياسو» حتى هتف في نبرات خفيفة محاولًا أن تبدو رقيقة ندية: «المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة»

وتمتم إياسو بينه وبين نفسه: «السلام .. المحبة .. يا إلهي ما أشقى بني البشر حيث يخدعون بالألفاظ البراقة .. آه .. إنها الكلمات نفسها التي كانوا يرددونها على مسمع من جدي الراحل «الإمبراطور منليك» .. كانوا يملؤون عقله بالترهات، ويغذون روحه بالحقد، فيندفع بجيوشه إلى الشمال والشرق والجنوب فيذبح الأبرياء من المسلمين، ويدمر مساجدهم، ويقيم على أنقاضها الكنائس والأجراس، ويحرق القرى المسلمة الآمنة بمن فيها، ويذبح العلماء،

ويصادر المواشي والثروات، ويطرد المساكين من أراضيهم كي يعطيها لجماعات المبشرين.. كل ذلك باسم الله.. باسم السلام والمحبة.. وتدق الأجراس.. أجل.. وتدق الأجراس.. أيها المطران العظيم، وتعلو الترانيم الآلهية. وتدق طبول النصر، ويهتف الجلادون على أشلاء الضحايا والشهداء «المجد لله في الأعالي.. وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة..» وتنهال البركات على جدي العظيم «الإمبراطور منليك» ..».

وأفاق إياسو من شروده على صوت المطران يقول: «مولاي!! ألا تسمعني؟؟»

وهمّ إياسو أن يبصق في وجهه، أو يصرخ به كي يغادر المكان فورًا، لكن يد أبيه «ميكائيل» ربتت على كتفه فى حنان، فأدرك إياسو الموقف ودقته فقال فى صوت هامس: «معذرة أيها المطران المقدس.. أشعر بالإرهاق والصداع الشديد.. لقد عذبنى الأرق طوال الليلة الماضية.. تفضل بالجلوس..»

ابتسم المطران فى سماحة مصطنعة، وتمتم: «إنني أعرفك يا حفيد «منليك العظيم» ..»

دق قلب إياسو في قلق: «ماذا تعني أيها الأب المقدس؟»

– «إنكم رجال حرب وغزو.. وإذا خرجتم عن هذه السياسة داهمكم الأرق، وتناوشتكم الآلام والأعراض.. إن بعض الإمارات الإسلامية قد رفعت رأسها من جديد، وبعض القبائل الوثنية في الجنوب اعتنقت الإسلام..»

ثم أخرج المطران من جيبه لفافة ضخمة من الأوراق، أخذ يقلب فيها، ثم قال: «ومعي إحصائيات كاملة بعدد المساجد التي لابد من هدمها، وكذلك بعض المدارس «والكتاكتيب» التي تعَلِّم القرآن واللغة العربية والآداب الإسلامية.. ومعي أيضًا قوائم بأسماء العلماء والرجال الذين يوجهون هذا النشاط الخطر، ومجلس الكنيسة الأعلى

قد قرّر استئناف الحملات التأديبية ضد هؤلاء جميعًا .. يجب أن تستأنف الحرب التي شنها جدك منليك ، ولا تلقِ السلاح حتى تقضي على آخر أمل يخفق في قلوب هؤلاء المسلمين الكفرة التعساء . حلفاؤنا الغربيون من طليان وإنجليز وفرنسيين على استعداد لمدك بكل ما تحتاج إليه من سلاح وخبرات .. إنهم إخواننا فى العقيدة .»

تقاطر العرق على جبين إياسو الأسمر ، وتمتم وهو يغالب عواطفه الجياشة : « أليس هناك طريق غير الحرب؟؟ »

« أثبتت الحوادث التاريخية المتتابعة أنهم لا يرضخون إلا لحكم السيف . إن عنادهم ، وتشبثهم بعقيدتهم فوق الطاقة .. إنني أحمل إليك ما استقر عليه رأي القساوسة والرهبان وحلفائنا الغربيين . ثم إنها الخطة نفسها التى سار عليها جدك العظيم منليك ..»

وتمتم إياسو دون وعي : « . . وعلى الأرض السلام ..»

وضحك المطران في أدب : «لا يكون السلام إلا بعد ما يعود المارقون المسلمون إلى حظيرة الرب »

وعاد إياسو إلى شروده وغمغم : « , . .بالناس المسرة ..»

أردف المطران : «لا مسرة إلا بالنصر على هؤلاء الأوغاد .. عندئذ تدق الأجراس في صفاء . وتعلو الترانيم الحلوة في الوهاد والروابي والغابات الشاسعة .. وتصبح الحبشة أرض الرب .. أرض يسوع المخلص ..»

هز إياسو رأسه ، ثم قال : «حسن ..أهناك مطالب أخرى؟ »

عبث المطران بأوراقه وقال : « إن المجلس الأعلى للكنائس في حاجة إلى قدر كبير من المال » .

– «لماذا؟؟ »

– «لإصلاح حالهم . ونشر رسالة الرب . وبناء بعض الكنائس ..»

– «لكن مدخرات الدولة لا تكفي الحرب والكنيسة ..»

– « إنهما شيء واحد أيها الإمبراطور العظيم .. ثم إن مزارع

المسلمين وقراهم مليئة بالخيرات، حيث الزرع والضرع وخيرات الأرض الطيبة، فما عليك إلا أن تصدر أمرك بفرض الضرائب الجديدة، ولسوف يؤدونها وهم صاغرون ..»

هبَّ الإمبراطور واقفًا، وتصنع الابتسام قائلًا: «لسوف ننظر في هذه الأمور جميعها»

قال المطران في هدوء: «كان جدك منليك لا يرفض طلبًا للكنيسة ..»

– «أعرف ذلك ..»

– «وما نظنك إلا سائرًا على نهجه القويم ..»

تمتم إياسو: «كن مطمئنًا ايها الأب .. لن أحيد عن النهج القويم .. لقد وهبت نفسي لله ..»

انفرج فم المطران عن ابتسامة عريضة، وقال: «إن ظننا فيك لم يخب. هذا ما توقعناه»

بعد أن خرج المطران، بقي إياسو قابعًا في مكانه، ورأسه يدور، وعيناه تحملقان دون أن يرى شيئًا حوله.. إنه طائر بخياله إلى بعيد.. حيث القرى الآمنة، والزرع الأخضر، والأطفال الصغار يمرحون ويهزجون بأغاني الحياة الحلوة الشجية، والسلام ينشر ظله الوارف على الربوع المترامية الأطراف، والأحلام الطيبة تداعب القلوب، وتنعش الأرواح.. وفجأة تثب إلى ذهن إياسو صورة أخرى مناقضة للصورة السابقة تمام المناقضة.. حشود كالوحوش تهجم بسيوفها ونيرانها.. تريق الدماء.. وتحرق الأخضر واليابس، وترتفع ألسنة اللهب مجنونة هادرة. والدخان الأسود يملأ الآفاق، ويعمي العيون.. والصغار يصرخون. والحمائم البيض تفر مذعورة أمام الهول الشيطاني.. يا إلهي لم كل هذا؟ وبأي حق؟.. المحبة،

السلام ، المسرة ، الرحمة .. وصرخ إياسو وقد انهمرت الدموع من عينيه : « إنهم يكذبون .. إنهم يكذبون .. هؤلاء الوحوش ..»

أمسك أبوه بذراعه في رفق وهتف مذعورًا : «ماذا جرى لك يا إياسو المسكين ..»

– « هذا التاج ثقيل يا أبتي .. أولئك المتعصبون يريدون أن يسوقوننا إلى الجحيم .. مستحيل .. إنهم يكرهون الإنسان .. ويمقتون حرية البشر ..»

ثم أدار إلى أبيه وجهًا بللته الدموع الغزار وقال في أسىً : « هل من الضروري أن يساق الناس إلى طريق الله بالسيوف والسياط؟؟ وهل هذا هو طريق الله فعلًا؟؟ إن الله لا شك يكره القهر والدمار وعذاب الأبرياء .. خبِّرني يا أبي : لماذا انتصر جدي منليك؟؟ لشدّ ما أكرهه!! كيف ينتصر الأشرار؟ إنني أكاد أفهم حكمة الله .. إنني جاهل دَعِيّ .. عاجز ، مقهور .. ليتني كنت راعيًا للأغنام .. راعيًا بسيطًا يشرب ألبانها ، ويمرح بين قطعانها ، بعيدًا عن هذا الهول والعذاب ..»

وصمت برهة ، وهمّ أبوه بالكلام ، لكن إياسو اندفع قائلًا :

« أخبرني يا أبي .. أكان محمد ﷺ يرعى الأغنام »

– « أجل »

– « ولماذا تركها؟؟ »

– «ليرعى البشر بعد أن تاهوا في الظلمات ..»

– « وهل فعل كما فعل جدي منليك؟؟ »

صرخ ميكائيل كمن لدغته حيّة : «حاشا لله يا ولدي .. استغفر ربك ، لم يرفع محمد سيفه إلا في وجه معتدٍ على الحرمات . ولم يحرق معبدًا ، أو يكره إنسانًا على اعتناق دينه .. كان يردد آيات القرآن ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ..﴾ . كان محمد يدعو ويهدي إلى الطريق الحق ، ويحنو على الناس من كل لون وجنس .. كان ..»

أمسك إياسو بكتفي أبيه ، وسدّد إليه نظرات والهة : «ولماذا تركت

دينك؟؟ لماذا؟؟ إنه لشيء رهيب!! أجبني وإلا قتلت نفسي .. إنه لأمر يعذبني .. وأنا أحبك .. أنت أبي .. قل لي : لماذا تحولت من «محمد على» إلى «ميكائيل»؟؟

أفلتت دمعة من بين أهداب الشيخ العجوز ، وبدا وجهه المليء بالأخاديد والندوب كئيبًا بائسًا وقال : صدق الله العظيم ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ .

وجفف دمعته ثم قال : «رأيت إخواني وأصدقائي يذبحون أمام عيني .. كنت أسمع صراخ الآلاف حول بيتى يصم الآذان .. وجنود جدك الإمبراطور منليك الحاقد ينشرون الرعب والموت فى كل مكان .. وخيّرت بين ترك ديني أو القضاء على المقاطعة بأسرها .. كنت يا ولدي الحبيب إياسوا على استعداد لأن أقذف بنفسي وأسرتي إلى الجحيم حتى أنقذ هؤلاء المعذبين .. ثم ما هي العقيدة؟ هل هي شيء يلفظ به اللسان أو يختلج به القلب ، هل هي كلمات وطقوس أم سلوك وفكر؟ .. أحسست أن الله لن يغضب عليّ .. قبلت عرض جدك كي أفدي التعساء ... وقبلت الزواج من أمك «شو أرقاش» أبنة «منليك» .. إن أباك لم يكفر بالله ولم يترك إسلامه .. كنت أختفي عن العيون وأؤدي صلاتي واستغفر الله .. آه .. لو كان الأمر يخصني وحدي لما ألقيت سلاحي قبل أن ألقي الله شهيدًا مع إخواني الأبطال .. تلك قصتي باختصار .. وأنت تسمعها للمرة المائة .. وأهالي مقاطعة «وللو» الإسلامية التي كنت أحكمها يعرفون المأساة .. آه .. لقد مزقني العذاب والضياع سنين طويلة .. وها أنت تعيدني إلى المأساة الحزينة .. لقد صبرت طويلًا حتى تبلغ كرسي الحكم وتصبح نجاشي الحبشة .. والآن يمكننا أن نبدأ من جديد .. أن نصلح ما أفسده القهر والتعصب ..»

هز إياسو رأسه وقال : «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ..»

– «هنيئًا لك .. لكن يجب أن تكتم إيمانك إلى حين ..

- «سأعلنه على الملأ .. فإما أن أنتصر أو أموت دونه ..»

- «أيْ ولدي .. لا تحاول قطف الثمرة قبل أن يكتمل نضجها، ستكون فجّة مرة المذاق .. ومستقبل ملايين المسلمين أمانة في أيماننا .. أذكر هذا ولا تقع في حبائل الاندفاع ..»

وصدر من خلفهما صوت يعرفانه جميعًا، إنه صوت زوجة إياسو: «لقد حان وقت الغذاء»

قال إياسو دون أن يعطيها وجهه: «لسوف نلحق بك بعد قليل ..»

وسمعا وقع خطواتها تبتعد، وهمي إياسو: «هذه الملعونة لشد ما أكرهها، إن مدارس المبشرين قد طبعتها بطابع ملعون متعصب ..»

- «لكنها وادعة وهي تحبك ..»

- «إن هدوءها الظاهري يخفي وراءه عربدة وانحرافًا لا مثيل لهما ..»

- «هيا بنا ..»



الفصل ٢

جلس إياسو ساهمًا يفكر .. ؛ لم يخفَ على زوجته الفاتنة السمراء أنه يعاني من شيء يخفيه عنها ، فهو قلما يبتسم أو يداعبها مثلما يفعل أيام الزواج الأولى . ترى ما الذي حدث له؟؟ لم تعد تطيق ذلك ، ويحه!! أتراه يفكر في امرأة غيرها؟؟ هذا هو عيب الملوك . إن سلطانهم لا حدود له ، ونساء كثيرات يهمن بهم حبًا ولهفة . والتيجان تسبي عقول الغانيات ، وإياسو شاب مليح ، بالإضافة إلى ذلك كله ما أكثر التماثيل والصور الماجنة التي كانت تكتظ في قصور أباطرة الحبشة . ولم لا؟! الرهبان والآباء المقدسون أنفسهم قد يرتكبون الحماقات ، وقد يتصارعون ويريقون الدماء من أجل امرأة جميلة ، هذا على الرغم من تشبثهم بأذيال الدين ، وعلى الرغم من تقدمهم في السن ، فهل يستبعد أن يقع إياسو فريسة لامرأة لعوب؟! ترى من تكون هذه المرأة؟؟

وأخذت زوجة الإمبراطور تشتط في أحلامها هنا وهنا ، والغيرة تلهب كيانها كله . ما قيمة التاج والصولجان إذا ما فقدت سيطرتها على قلب « إياسو »؟ إنها أنثى قبل أي شيء ، وإياسو يجب أن يكون لها وحدها ؛ آه لو علمت أية امرأة تلك التي لعب بقلب زوجها إذن لسقتها السم لتوها ، ولأراحت نفسها من عذاب الغيرة ، وأشباح الأرق التي تقلب نومها إلى جحيم لا يطاق .. لكنها لن تسكت ، لسوف ترصد لزوجها العيون ، وتتبع حركاته وسكناته حتى تلم بأخباره ... ولسوف تستعين بخبرة المطران .. الأنبا ميتاوس ذلك لأب الذي بارك زواجهما . والذي ألقى عليها عديدًا من النصائح والعظات قبل الزواج ، فهي تذكر جيدًا حين قال لها « ميتاوس » ذات يوم : «لسوف ترتبطين بإمبراطور الحبشة ارتباطًا مقدسًا لا ينفصم .. تلك مشيئة الله يا

ابنتي : ولن تستطيع قوة في الأرض أن تفرق بينكما .. ولا تنسي الدروس التي تلقيتها في مدارسنا . إن الحبشة أرض الله ، ويجب ألا يدنسها مسلم ، والخلاص من المسلمين يحتاج إلى إمبراطور أشد مراسًا ، وأشرس قلبًا من «منليك» ، ولقد شاءت الأقدار أني قع هذا العبئ على « إياسو » فكوني عونًا له على تنفيذ مشيئة الله ، وحاذري أن يقع فريسة الوهن ، أو يستسلم للراحة والنعيم ، وإلا ضاعت آمالنا في تطهير الديار من أعداء الله .... تذكرت زوجة الإمبراطور كل ذلك . وها هي ترى قلب إياسو ينأى بعيدًا عنها ، إنها لم تزل زوجته أمام الناس ، لكن قلبه يبعد عنها آلاف الأميال . هذا ما تشعر به . لقد كان ميتاوس مخدوعًا حينما تصوّر أن أية قوة في الوجود لا تستطيع أن تفرق بينهما . نسى المطران أن اللقاء الروحي شيء آخر غير اللقاء الجسدي ، وأنه لا قيمة للرباط المقدس المزعوم إذا تنافرت القلوب .. إنها لم تزل زوجته ، لكن أين الشيء الكبير العظيم الذي يجعل من الزوجين كائنًا يكاد يكون واحدًا؟ لم تستطع الصبر ، وأقبلت على إياسو والقلق يلهب فؤادها بسياط لا ترحم وقالت في مسكنة : «ما الذي بك يا حبيبي؟؟ »

رماها بنظرات محتقنة بائسة وقال : « لا شيء . . .»

قالت وقد جثت على ركبتيها في ذلة : « أي إياسو .. أنا زوجتك فحرام أن تخفي عني شيئًا ... هل حدث ما يبغّضني إليك؟ .. تكلم بحق السماء ، إنني على استعداد لأن أفعل ما تأمرني به حتى تنجاب هذه الغمة »

رق قلبه لحالها .. وأثرت فيه دموعها التي لم تنسكب بعد ، وإن لم يزايله ذلك الشعور الداهم الذي يوحي إليه بأن قلبيهما بعيدان بعد السماء عن الأرض ، لكن كيف يفجعها في أعز ما تحيا له امرأة .

قال إياسوا ساخرًا : «مجلس الكنيسة الأعلى يريدني أن أشعل

الحرب، وأخرج في جيشٍ جرار للقضاء على القبائل والمقاطعات الإسلامية ..»

تمتمت في حسرة : « أهذا كل شيء؟؟ »

– « أجل ..» قالها في حزم واقتضاب، وهو يعلم أنه لم يفصح لها عن كل ما قلبه، لكنه كان مضطرًا لأن يفعل ذلك حتى لا يحطم كبرياءها، أو يزيد من نكدها، وكان يقصد من ناحية أخرى أن يستمع لما تقول بشأن ذلك الأمر الخطير ..

قالت الإمبراطورة الصغيرة : «لكني أريدك إلى جواري » .

– «كيف؟؟ أنعصى أمر الكنيسة، ونضرب عرض الحائط بتوصيات الأنبا ميتاوس؟؟ إنه لشيء خطير يهدد سلطاننا . ويزعزع أركان الكرسي الذي أجلس عليه . وقد ينزع التاج من فوق رأسي، وأنت تعلمين ذلك، ترى هل أطيعك أم أطيع الأنبا ميتاوس؟؟ »

خفضت رأسها في حيرة، ثم قالت : «ليذهب الجيش لمحاربة المسلمين، ولتعين له قائدًا تثق به، ولتبق أنت إلى جواري ..»

قهقه ساخرًا وقال : « إن الإمبراطور الجديد يجب أن يثبت إخلاصه لله وللكنيسة ... وذلك في أن يكون على رأس الجيش، وأن يقدم القرابين .. أتفهمين؟؟ القرابين من دماء البشر ..»

قالت : « المسلمون ليسوا بشرًا ... إنهم أنجاس كفرة، ومع ذلك فقد أتتني فكرة، لتذهب على رأس الجيش، ولأكن معك . لا أريدك أن تفترق عني .. ثم إن بي شوقًا جارفًا لرؤية تلك المشاهد التاريخية الرائعة .. أن أرى جوادك الفارع يطأ جثث هؤلاء العبيد المارقين ..»

. . . إنها سافلة ملعونة مثلهم، حسبتها تكره الحرب لأنها العدوان والوحشية والظلم، فإذا بها لا تفكر إلا في نفسها وفي المشاهد الحمر

التي تثلج فؤادها ، إنها لم تزل تعيش في المستنقع الأسِن الذي بلغ فيه المتعصبون من رجال الدين والكنيسة وعلى رأسهم الأنبا ميتاوس ، وكظم غيظه وقال : «ولماذا نقتل المسلمين ونسبي نساءهم ونحرق قراهم؟»

– «لأنهم ليسوا على حق ..»

– «وهل فعل المسيح ذلك بمن خالفوه في الرأي والعقيدة؟»

– «لا أدرى ..»

فصرخ إياسو محتدًا .

– «بل تعرفين ، ولكنك تخدعين نفسك ..»

– «الأنبا ميتاوس ورجال الكنيسة يعرفون أكثر مما نعرف ..»

– «المعرفة أيتها الغبية ليست حكرًا على مجموعة بعينها ، هؤلاء القساة الطامعون من رجال الكنيسة يرسون قواعد دين جديد كله على اختراع وانحراف من صنع أذهانهم وأحقادهم ، الفاشلون وحدهم هم الذين يسوقون الناس بالسياط والسيوف إلى حظيرة رأيهم .. لو كانوا على حق لتدافع الناس طواعية وبدون قهر إلى الطريق الحق .. أنتم لا تقرأون الأناجيل .. بل توصيات القساوسة وأوامرهم هي الأناجيل الجديدة ..)

قالت الزوجة : «أكاد لا أفهمك يا إياسو»

– «لكن كلماتي واضحة ..»

– «واضحة ، لكنها تخالف العرف الذي درجنا عليه .»

– «العرف .. ها .. ها .. ها أنت تعيشين في سجون التصورات الباطلة كما يفعل الأنبا ميتاوس وحاشيته .. يريد أن يبقى في الكنيسة يرتل الأناشيد ، ويتلو الصلوات ، ويزجي النصائح تحت دقات الأجراس الصاخبة ، وأنا أخوض هناك برك الدمع . وحقول النار والشوك والدماء .. أنا أتعذب والقساوسة الموقرون يأكلون ويشربون

ويخادعون النساء ، وينهبون أموال الدولة باسم الأب الممجد ..»
وصمت برهة ، ثم عاد يقول : «لماذا لا نحطم جدران ذلك السجن الرهيب الذي أقامه المتهوسون في عقولنا؟؟ لماذا لا نعيد التفكير من جديد ، ونناقش الأمور دون حكم مسبق؟! ألا يمكن أن نكون على ضلال وعدونا على حق ..»
صاحت في دهشة : «مستحيل .. لا يمكن أن يكون المسلمون على حق ..»
ابتسم إياسو ابتسامة شاحبة ، ثم سدّد إليها نظرات حانقة ، وقال : «زوجتي المسكينة إني أحتقرك ..»
ارتجفت رجفة مباغتة وقالت : «ماذا؟؟»
– «لأني أحتقر العبيد الذين تسيرهم أهواء الآخرين . . .»
وأشار إلى قلبه بإبهامه وقال : «تحرير الروح من هنا .. من القلب ..»
ثم أشار إلى رأسه : «وتحرير الفكر من هنا .. من العقل المحايد ، الذي يلقي بتعصبه ومخاوفه إلى الجحيم .. عندئذ تنتصر المبادئ بلا سيوف أو دماء .. أي زوجتي المسكينة! إنك ضحية مثل أولئك المسلمين التعساء تمامًا .. هم تراق دماؤهم بسيف البغي . وأنت تراق إنسانيتك بسيف الوهم والتعصب ونصائح الرهبان والقساوسة ..»
قالت وقد سددت إليه نظرات ذات معنى : «إياسو»
– «نعم ..»
– «إما أنك مريض أو أفرطت في الشراب»
– «ما الذي يدعوك لهذا القول يا زوجتي؟؟»
– «أنت تنحاز إلى جانب المسلمين وتدافع عنهم ..»
وعاد يقهقه ساخرًا : «إنني ملِكٌ على الجميع يا زوجتي ، ويجب أن أنشر العدل بين الرعية كافرهم ومؤمنهم ، فقيرهم وغنيهم .. هذا كل ما في الأمر ..»

وران عليهما صمت مطبق .

نسيت الزوجة كل ما كان يفكر فيه زوجها ، لم تعد تذكر سوى كلمة واحدة أثارت النار في قلبها وجسدها ، فصاحت والدموع تغرق عينيها : «تقول أنك تحتقرني؟؟ »

- «معذرة يا زوجتي ، لم أكن أقصد ذلك بالضبط .. فقد أردت أن أسفِّه تلك الأفكار الخاطئة التي ألح بها معلمو التبشير على فكرك حتى مسخوه مسخًا مثلما حاول معي تمامًا ..»

وقالت وهي تجفف دموعها : « إذن فأنت لا تحتقرني ..»

- « أهذا هو كل ما يهمك؟؟ »

- « بالطبع ..»

- «يبدو لي الآن أن احتقار الآخرين خطيئة لأنهم بشر من خلق الله .. ومع ذلك فإن هناك كثيرًا من الألفاظ نتفوه بها تنفيسًا عما يغلي في أعماقنا ، إنها مجرد انفجارات عمياء لأنها لا تحمل كل المعنى الذي نريد ..»

ابتسمت . وسرت حمرة في وجنتيها ، وقالت وعيناها إلى فراش النوم : «لا أفهم الكثير مما تقول ، لقد أصبحت فيلسوفًا يا زوجي .. إنني أشهد لك بذلك ..ومن رأيي أن نكتفي بهذا القدر .. آه لشد ما أنا مشتاقة إلى النوم ..»

ثم عادت تقول وهي تجذبه منذ ذراعه : «حسبت أن هناك امرأة أخرى توشك أن تخطفك مني »

وقال وهو يتنهد : « إن أحلامك لا تزيد عن هذا السرير اتساعًا »

- « ولم أحلم بأكثر من ذلك .. إنه يتسع لاثنين ..»

قال إياسوا وهو يخلع عنه ملابسه : « هناك كثير من الأشياء نفعلها تلقائيًا دون أن نفكر فيها . إنها تشبه إلى حد كبير التنفس ...،الأكل والشرب .. والمشي ..»

- « ماذا تعني بالضبط؟؟ » .

- «أعني إن ميتاوس يريدني صورة طبق الأصل عن جدي منليك .. إنه يريد كل يوم أجراسًا جديدة تدق .. وكنائس تقام، ومساجد تهدم، وحرائق تشعل .. لقد أصبح ذلك أمرًا عاديًا لا يثير أية غرابة .. تمامًا مثلما تفكرين في السرير الذي لا يتسع إلا لإثنين . . .»

وعندما صمت قالت: «لم أستمع إلى أي شيء مما تقول، إن فلسفتك لم أعد أستطيع هضمها .. هيا ودعنا نفكر في شيء آخر ..»

تمتم وهو يهز رأسه: «شيء آخر .. الهروب .. تريدني أن أفكر فقط فيما تفكر هي فيه ..يا وعاء الأنانية القذر .. يا مقبرة النظر .. يا نتاج الحقد الأعمى والتربية العقيمة وانحراف المبشرين .. شيء آخر؛ أيتها الكتلة من اللحم والشحم والدم .. تتحدثين عن ذبح الأبرياء ببساطة. على أنه لو خدش إصبعك اللون المرن لملأت الدنيا نحيبًا وبكاء. ولتكاثر الأطباء على بابك .. ولانهالت برقيات الاستفسار على قصرك ولتوافد السفراء وقريناتهم ليقدموا فروض الطاعة والولاء ... كان محمد راعيًا للغنم، وكان يأنس بالفقراء والمساكين والحائرين .. وكان يقول للطغاة الذين حاربوه، وقتلوا الكثيرين من رجاله .. اذهبوا فأنتم الطُّلَقَاء .. هكذا حدثني أبي .. آه أيتها المسكينة .. دعنا نفكر في شيء آخر .. بل نفكر في أنفسنا .. نقذف بها في هوان الأنانية والهروب . . .»

وجاءه صوتها: «فيم تفكر؟؟ لقد أعددت السرير تمامًا، وضمخته بالمسك .. وأطلقت البخور .. ألا تشم؟؟ ثم ما رأيك في ذلك القميص الحريري الأزرق . . .»



الفصل ٣

قالت « شو أرقاش » لزوجها « ميكائيل » ذات صباح : « إن ولدنا الإمبراطور يعاني من محنة نفسية قاسية ..»

فرد عليها : « دعيه يا امرأة لسوف ينضجه الألم العظيم ..»

– « إنه الإمبراطور ، ومن حقه أن يطلب فيجاب ، فلم كل هذا العذاب الذي يفترسه افتراسًا؟؟ »

إن ميكائيل يعلم الحقيقة المرة ، لقد تمزق ولده بين دروس المبشرين ، وإسلام أبيه المخبوء ، بين التقاليد والقيم التي عاش في رحبها في قصر جده منليك ، وبين الهمسات والتوجيهات الخفية التي حرص أبوه على أن يبثها في وجدانه ، وزاد تمزقه حدة بعد أن أوصى جده – الذي لم ينجب ولدًا – أن يتسلم إياسو مقاليد الحكم في عرش الأباطرة بالحبشة ، إنه أمام الجميع ملك مسيحي يسنده رضاء القساوسة ومنشورات المطران الأكبر ، وأمام الله رجل مسلم يشعر بفداحة الأعباء التي حملتها له الأقدار . وهو بين أن يعلن إسلامه فتثور الكنيسة ، وتموج البلاد بالفتن ، وبين البقاء ظاهريًا على عقيدته النصرانية فيحيى بوجهين ويتكلم بلسانين ، ويصلي في الكنيسة بطريقة تختلف تمامًا عن الطريقة التي يصلي بها وحده أو مع أبيه ، وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، إن هذا التمزق الفكري والنفسي ، سينعكس أثره في تصرفاته ، وبالتالي في جماهير شعبه .. إنه مستقبل أمة تعد بالملايين ، وفي فترة تاريخية حرجة ، فهناك أول حرب عالمية على الأبواب ، تركيا وألمانيا في جانب ، وإنجلترا وفرنسا ومعظم الدول الغربية في جانب ، والغربيون المستعمرون قد ألقوا برحالهم على شاطئ البحر الأحمر وعقدوا الصلات الوثيقة مع

جده منليك ، ومع القساوسة ورؤوس المقاطعات ، إن الأفق من حوله يموج بعديد من التوقعات والأسرار الغامضة . ورجال الكنيسة لهم مطالب ، والطليان والفرنسيون والإنجليز هم الآخرون لهم مطالب ، وشعبه ينتظر منه الكثير ، وهو نفسه يريد قاعدة صلبة يرتكز عليها كي يسير في الطريق الشائك الذي تكتنفه الظلمات ، ولم يعد خافيًا على الجميع أن الإمبراطور الشاب إياسو يقع تحت صراع نفسي رهيب يوشك أن يجلب له الانهيار الكامل .

قالت « شو أرقاش » ابنة منليك : «لو كنت مؤمنًا حق الإيمان يا ميكائيل لاستجاب الله لك »

وأدرك محمد على « ميكائيل » أنها تعرض بضعف عقيدته ، وأن تنصّره ما زال موضع شك ، وأنه هو اتلي أورث ولده هذه البلبة ، والتمزق .

قال ميكائيل : « الرب واحد يا شو أرقاش أيتها العجوز اللئيمة ..»

- « يعلم الله أنني أحببتك من كل قلبي .. وحاولت جاهدة : أن أجعل أبي منليك يعطيك كل ما تصبو إليه ، ويجعلك محل ثقته ، وهل هناك أكثر من أن يوصي بالملك لابن رجل مسلم عريق في إسلامه؟؟ لقد كان أبي رحمه الله يحب حفيده إياسو حبًا جنونيًا .. لقد استطاع قبل موته أن يكسر مقاومة حكام المقاطعات ، ويقطع الطريق على اعتراض مجلس الكنائس الأعلى .. إن أبي لم يشك فيك لحظة ، أما أنت فكنت ترمق ذلك كله بعيني ذئب .. أنسيت يوم أن اعترضت على زواج ابنتنا « مالفن » من « الرأس تفري » حاكم ولاية سيدامو؟؟ لقد كنت تفضل أن تبقى ابنتك عانسًا على أن تزوجها من مسيحي متعصب حقود على حد قولك .. أكنت تريد أن تزوج حفيدة منليك وأخت إياسو لرجل مسلم؟؟ »

قال ميكائيل : «لم أقصد ذلك بالضبط ، لكني لا أثق في ذلك القاسي القلب الرأس تفري ، إن في عينيه خبثًا ودهاءً مخيفين .. إنها مجرد

مشاعر قوية لا أستطيع الهروب منها ، ولولا ضغط منليك ، وخوفي من المشاكل التي قد تنجم عن عدم إتمام زواج «مالفن» من «تفري» لما وافقت .. ما أكثر ما يفعل الإنسان أشياء لا يرضى عنها قلبه ..»

وأقبل «إياسو» باش الوجه ، منطلق الأسارير ، وقال وابتسامة الرضى ترتسم على شفتيه : «صباح الخير يا أمي .. صباح الخير يا أبتاه ..»

تحاملت الأم على نفسها وهبت واقفة والسعادة تغمر قلبها ، وهتفت : «ها أنت تضحك أخيرًا .. ما أسعد قلبك يا «شو أرقاش» .. إن إمبراطوري الحبيب يبسم لي .. تصور .. أن طلعتك الفاتنة تذكرني بجدك منليك .. إنك شبيه به لدرجة ملفتة للنظر» .

قهقه ميكائيل ساخرًا وقال : «أنظري جيدًا .. إنه صورة مني .. ألا تذكرين؟؟ كنت تضمينه إلى صدرك وهو طفل ، وتغرقين وجهه بالقبلات ، وتقولين إنه يشبهك تمامًا يا ميكائيل ولهذا فأنا أحبه .. يبدو أن بصرك قد ضعف ، وحكمك على الأمور قد اختل ..»

قالت شو أرقاش غاضبة : «لم هذا التعصب؟؟ أحرام أن أشبهه بجده العظيم في سمته وابتسامته .. إنك تحاول قدر طاقتك أن تنكر أثري وأثر جده في وجوده ..»

– «لا أنكر ذلك الأثر ، ولكني لا أقبل التصورات المتعسفة ، إن ملامحه التي تشبه أبيه ، لا تعني تجاهل أمه وجده .. إنه مدين لكما بالكثير .. بوجوده أولاً ...بهذا العرش ثانيًا ..»

وصمت إياسو ، كان يستمع إلى نقاشهما الحاد ، وهو بينهما يبحث عن شيء ينتمي إليه .. لا .. لا .. لقد استقر باله ، وبلغ مرحلة الانتماء بعد عذاب وضنى ، وما كان الانتماء لمجرد الأب والأم ، إنه – حسبما يعتقد إياسو – يرتبط بالمبدأ والعقيدة ، إن الانتماء قيمة كبرى تفوق النسب والصلات الظاهرية لم يعد نسبه محل شك ..إنه ابن محمد

على المسلم وابن شو أرقاش المسيحية .. ليكن .. أما الأهم من ذلك فهو الانتماء الروحي والنفسي والفكري، فرب لقيط مجهول النسب يستشعر نسمات الراحة والرضا النفسي حين ينتمي لشيء كبير .. تلك هي المشكلة .. وهز إياسو رأسه وقال: «كان منليك جدي .. وهذه حقيقة .. ولا تزعجني أخطاؤه .. فهي له، وحسناته أيضًا له .. إن ذلك شيء بينه وبين الله .. وميكائيل أبي سواء أكان مسلمًا أو نصرانيًا . إنني خلق جديد .. هذا ما أريد أن أقوله ..»

وتدخلت أمه قائلة: «وأنا؟؟ تحدثت عن جدك وأبيك ثم أغفلتني ..»

ضمها إلى صدره في حنان بالغ وقال: «أنت أمي حبيبتي، ما أسعد اللحظات التي أقضيها معك ..» .

فأشرق جبينها بالفرحة، ثم تذكرت، فدفعته في حنان قائلة: «كيف تتكلم عن أخطاء جدك؟؟ أكانت له أخطاء .. لقد عاش طول عمره خادمًا لله، راعيًا للكنيسة، يقضي أبهج أوقاته في ميادين القتال حتى أقام لك ذلك المجد الضخم ..»

وقع إياسو في حيرة، حاول أن يتكلم، ما جدوى الكلام وخاصة إذا كان سيخلِّفُ أسىً في النفس .. نفس أمه التي حملته تسعة أشهر، والتي يجري دمها في عروقه ..

– «كان حب جدك لك يكاد يبلغ مرتبة العبادة ..»

– «أعلم ذلك ..»

– «فكيف يكون له أخطاء؟ ..»

– «إنك تخلطين بين قضيتين ..»

– «كفى يا إياسو .. إنك تتجرأ على كثير من المقدسات»

قال إياسو وقد شرد ببصره إلى بعيد : « الله وحده .. هو الذي أقف في كنفه مطأطئ الرأس ، كسير القلب ، ألهج بالضراعات .. إنني لا أعبد سواه .. « أقدس كلماته ورسالاته ..» و »

وجاء صوت زوجة الإمبراطور رخيمًا مبتهجًا : « إياسو .. إياسو .. أين أنت أيها الحبيب؟؟ »

قال إياسو بصوت خفيض : « هذه الطفلة لا تكف عن مطاردتي ..»

قالت شو أرقاش في سعادة : « إنكما تدخلان على قلبي السرور . يا طفليّ العزيزين ..»

ثم قالت بصوت مرتفع : « إنه هنا أيتها الخبيثة الماكرة .. ألا تتركينه مع أمه ساعة ..»

وأقبلت زوجة الإمبراطور تحمل في يدها مكتوبًا : « إنني أزف للجميع بشرى طيبة .. إن العمة « مالفن » والرأس « تفري » قادمان اليوم لزيارتنا ..»

وهتفت « شو أرقاش » : « مرحبًا مرحبًا .. لقد تشوقت إلى ابنتي مالفن كثيرًا ..»

وساد الوجوم وجه الرجلين ، وتبادل نظرات ذات معنى ، وثرثرة المرأتين لا تنقطع ، وبين الرجلين حديث صامت عاصف ، لكأن ميكائيل يقول : لشد ما أكرهه ، ولكأن إياسو يرد عليه : وأنا الآخر أمقته أشد المقت ، إنه صورة مجسدة لأطماع الكنيسة ، ومكائد المستعمرين الغربيين ، وسوط عذاب على مخالفيه في الرأي والعقيدة في المنطقة التي يحكمها ..

انتحى إياسو جانبًا ومعه أبوه ، وأخذا يتجاذبان أطراف الأحاديث ، يتحدثان عن ضغط الكنيسة لإشعال نيران الحرب ، والقضاء على الإمارات الإسلامية ، وإنشاء الكنائس ، ورصد الأموال لرجال الدين ، ويتحدثان عن الحرب العالمية وما تجره من ويلاتٍ ،

ذلك الصراع اللافح على الصعيد الدولي والمحلي ..

وأخيرًا قال إياسو : «متى نبدأ؟؟»

قال الأب : «أي ولدي الإمبراطور .. لا تضرب بسيفك ضربات عشواء ، ولا تنطلق إلا من قاعدة قوية متينة ، ولا تتقدم إلا ومن حولك رجال يؤمنون بما تؤمن به .. وافتح قلبك لعبير الحقول في السهول والغابات والقرى ، وتحسس آمال الناس في كل مكان ، وكن نعم الراعي فيكونوا خير الرعية .. إن الشعب الذي يحب مليكه هو القلعة الحصينة التي يحتمي بها عندما تدلهم الخطوب .. ولا تجعل بينك وبينهم حجابًا أبدًا ، ولا تنكل بخاطئهم ، واعف عن مسيئهم .. وقرب المخلصين والأتقياء ..» .

قال إياسو : «كلمات حلوة يطرب لها قلبي .. لكن متى أمزق القناع الصليبي الذي أضعه فوق وجهي؟؟»

وأخذا يتدارسان الموقف وأبعاده ، ويدلي الأب بتجاربه المريرة في الحياة . وأخيرًا اتفقا على أن تكون البداية هي أن يخرج إياسو في جولة طويلة يجوب فيها أنحاء البلاد حتى يعرف عن كثب قضاياهم ومشاكلهم والطاقات الكامنة فيهم ، ويلتقي بهم دون حجاب ، ويحادث شيوخهم وشبابهم ، مسلمهم ومسيحيّهم ، ويمهد للإجراء الحاسم الذي سيتخذه .



الفصل ٤

دقت الأجراس، واصطف حرس الشرف على طول الطريق، وتوافد رجال الكهنوت وعلى رأسهم المطران، واستقبل «الرأس تفري» استقبالاً يليق بمقامه: أليس أحد حكام المقاطعات الكبيرة، وصهر الإمبراطور، وابن الكنيسة البار؟؟ وبعد أن انتهت مراسيم الاستقبال قصدت «مالفن» إلى أخيها إياسو وألقت بنفسها بين ذراعيه، وهتفت من قلبها: «أيها الحبيب إياسو، لشد ما تشوقت إليك؟؟» ثم هرولت إلى أبيها وأمها وزوجة أخيها، وهي تكاد تطير من الفرح، وأخذت ترمق جنبات القصر الإمبراطوري بحنان بالغ، لكأنما هذه الأركان، وتلك الجدران، وهذه التحف المتناثرة والستائر والأبسطة والخدم.. لكأنما كل هذا جزء من ذاتها، من وجودها، وتنفست الصعداء.

وحمدت الله، وتمتمت قائلة: «ليتني ابقى معكم هنا طول العمر»

قالت زوجة إياسو عاتبة: «وكيف تطيقين البعد عن تفري ..»

هزت رأسها في أسى وقالت: «تفري؟؟»

– «ماذا؟؟»

– «إنه لا يفكر إلا في نفسه .. لم يتزوجني بل تزوج الحكم ..»

– «هذا كلام خطير يا أختاه – إنني أعتقد أن تفري على خلاف ما تظنين .. حاكم قوي، مرهوب الجانب، يثني عليه رجال لكنيسة ..»

– «ليس رجال الكنيسة كل شيء ..»

– «بل رضاهم هو المهم ...»



قال إياسو لتفري في قاعة استقبال الضيوف : «جميل منك أن تذكرنا بهذه الزيارة .»

نظر تفري في شك ، فالعداء بينهما منذ أن كانا طالبين في المدرسة ، وما أكثر ما اختلفا في الرأس ، وفي فهم أمور الدين ، كان تفري يبدو في نظر إياسو وكأنه رجل من رجال الأعمال الجامدين ، لا يفكر إلا في الربح والخسارة ولا يقيس الأمور إلا بمقاييس ذاتية ضيقة . كان غبيًا وإن كان خبيثًا دؤوبًا ، وكان قاسيًا فظًا وإن تظاهر بالرحمة والرقة ، وكانت الكلمات بالنسبة له لا تحمل سوى أكثر من معنى واحد ، هناك حق أو باطل ولا شيء بينهما ، ورأيه نهائي ولو جانبه الصواب ، فلسفته العنف والقوة والبطش الحاسم ، يتحدث كثيرًا عن السماء وأفكاره ملتصقة بالأرض الموحلة ، ويثني على القساوسة والرهبان ولكنه يحتقرهم . وينحني لهم لا احترامًا ولا تقديسًا ولكن ليبعث بنظراته الحادة باحثًا عن منفذ إلى نفوسهم وقلوبهم ، يحترم المستعمرين الغربيين لأنه يؤمن بالقوة ويقدسها ويجعلها فوق المبدأ والعدالة . يشك في أقرب المقربين إليه .. ثقيل الظل حتى على أصدقائه ..

وكان إياسو في نظر تفري ، شاعرًا حالمًا ، وتؤثر فيه الأحداث الصغيرة ، يطيل التأمل ، ويحلق بروحه إلى بعيد ، ويكتظ عقله بالأمنيات ، يفلسف ضعف الآخرين ، ويلتمس لهم الأعذار ، لا يقبل الدنيا على علاتها ، ثائر دائمًا ، يرى كل شيء ناقصًا ، ولا يبدو له الكمال إلا في عالم المثال ، ليست هناك حدود فاصلة بين القيم المتضاربة ، إن هناك نوعًا من التداخل والامتزاج فليس هناك شرٌّ محض ، ولا خير محض إلا في عالم الأبالسة والملائكة ... يقضي أوقاتًا طويلة في التفكير بتعاسة الآخرين .. حانق دائمًا ، قلق دائمًا ، يبحث عن الصورة المثلى فلا يجدها ..

قال له تفري ذات مساء وهم يتلقون العلم في المدرسة : «لا

أستطيع أن أتصورك إمبراطورًا على نسق جدك منليك »
قال إياسو : « هو ذلك .. إن منليك شيء وإياسو شيء آخر ..»
– « لكن أيها الصديق إن لملك سمة خاصة »
– « ماذا تعني يا تفري؟؟ »
– « أعني أنه يلزمك الوقار والصلابة والحسم ، وشيء من التعالي على الآخرين .. لأن الإمبراطور خلق آخر غير باقي الناس ..»
قال إيسو مازحًا : « هل قرأت شيئًا من هذا في الأناجيل؟؟ »
– « بل قرأته على صفحات التجربة .. في الحياة العملية ..»
– « ليس لدي مسلمات يا تفري ..»
– « بل لك جسم رجل ، وعقل طفل ، وقلب شاعر »
– « وأنت؟؟ أنت .. ..»
– « ماذا؟؟ »
– « جلاد يا تفري »
وقهقه تفري ساخرًا ، بينما توترت أعصاب إياسو ، كان يظن أن تفري سينشب فيه أظافره ، ليرد عن نفسه تلك التهمة البشعة ، لكنها – كما يبدو – لاقت استحسانًا لدى تفري ، الذي قال : « جلاد لأعداء الله ..»
– « من هم؟؟ »
– « الذين لا يؤمنون بالرب يسوع »
أخذت تلك الذكريات تنثال في رأس كل من إياسو وتفري ، ومن حين لآخر ينطق أحدهما بعبارة ترحيب أو شكر جامدة ، لا تعدو عن كونها مجاملة ضرورية ، بين صهرين ، أو بين ضيف ومضيف ، وقال تفري : « كيف حال الأم « شو أرقاش »؟ »
– « بخير »
– « وخالتك « زوديتو »؟؟ »
– « إنها على أحسن ما يرام ..»

- «وزوجها «غوغسا»

- «الجميع يرحبو بمقدمك ..»

وساد الصمت برهة. قال إياسو بعدها: «وكيف حال شعب المقاطعة؟»

- «إنهم يقدمون فروض الطاعة والولاء لإمبراطورهم المفدى إياسو العظيم حفيد منليك العظيم ..»

- «يبدو أنك لا تلاقي أي نوع من المتاعب ..»

- «طبيعي أن تنشب بعض المشاكل، وخاصة من بعض المسلمين .. أنت تعرف طريقتي .. إنني أحسم لأمور دائمًا بطريقة واعية .. إن سخافات المسلمين لا تنتهي .. ما زالوا مصرين على إنشاء المساجد وتعليم اللغة العربية، وتلقي الدروس الدينية من الوعاظ ..)(

قال إياسو: «ليست هذه مشاكل بالمعنى الصحيح ..»

- «معذرة مولاي الإمبراطور .. إنها أمور جد خطيرة .. يجب أن يحرص مولاي على وحدة البلاد ..»

- «حرية العقيدة والرأي تدعم هذه الوحدة ..»

- «اسمح لي أن أخالفك الرأي، كيف تكون الوحدة بين مسلمين ومسيحيين، بين لغة عربية وأمهرية، بين مساجد وكنائس، بين أناجيل وقرآن؟! هذه صورة مزعجة تعرض البلاد للتشتت والضياع. وهدير الحرب العالمية يصم الآذان .. إنها فترة حرجة ..»

قال إ]اسو وهو يكظم غيظه: «أيها الصديق تفري .. وإن رأي على النقيض من رأيك تمامًا، إن بلادنا يجب أن تكفل حرية الجميع، مستحيل أن يكون الناس في أي بقعة من بقع الأرض على رأي واحد .. الناس ليسوا صورًا شمسية. هناك حد أدنى من الوحدة واللقاء بين البشر، لكن الوحدة التي تنشدها لا وجود لها في الماضي أو الحاضر .. إن اختلاف الرأي لا يعني العداء والفرقة والتمزق .. ماذا

أقول أيها الصديق تفري .. إنها قضية لا تحتاج إلى نقاش طويل ..»

قال تفري ببرود بالغ : «معنى ذلك أن نفتح الطريق للفتن والاضطرابات ، فنقضي بذلك على مجد المسيحيين في بلادنا ..»

– «الفتن والاضطرابات شيء آخر ، ولها علاج يتفق وطبيعة كل منها ..»

قال تفري وقد رفع رأسه في تحدٍ ، وانفرجت شفتاه في اشمئزاز : «لكنها أوامر الكنيسة ..»

هز إياسو رأسه ، لقد وقع في حيرة ، أيهاجم الكنيسة؟؟ هذا ما يريده تفري ، إذن فالكنيسة هي التي تحكم ، الكنيسة الحبشية بأفقها الضيق ، وتعصبها الفردي ، وتوصياتها التي تبدو أبعد ما تكون عن تعاليم المسيح وأناجيله .. الإمبراطور إذن رمز .. آلة مسخرة في يد الأطماع الكنسية والتبشيرية .. يا لها من كارثة! ..

وفي نبرات هادئة قال إياسو : «من الذي يحكم يا تفري؟»

– الإمبراطور .. أنت يا إياسو»

– «والكنيسة . ما دورها؟؟»

– «توصي وترشد وتوجه ..»

أردف إياسو دون تردد : «حسن .. لنكن صرحاء .. أتعتقد أن هؤلاء الذين يثيرون المشاجرات في الشوارع ، ويتخاطفون النساء ، ولا يكادون يفيقون من السكر .. هل هؤلاء قادرون على حسن التوجيه؟؟»

– «أعرف أيها الصديق إياسو أن بعضهم قد أساء التصرف ، لكنهم يمثلون السلطة الدينية .. السلطة الروحية العليا في البلاد ، ولهم التأثير الأكبر في جماهير الشعب .. هذه حقيقة ، لا يمكن إنكارها ، مهما كان الأمر ..»

وكثعلب ماكر همس تفري : «ترى ألك موقف جديد مع الكنيسة؟؟»

هذا اللعين «تفري» يريد أن يلعب لعبته الدنسة ، أن يوقع بين

القصر والكنيسة، وفي هذه الأجواء الدنسة المظلمة يستطيع أن يثب فوق القمة، إنني أعرفه ذلك الانتهازي المخادع، رجل الأعمال.. صديق الإنجليز والفرنسيين وبعثات التبشير.. ذلك الذي يشبع غرور رجال الكنيسة، وينفخ في كبريائهم، ويمرغ خديه على أعتابهم..

أفاق إياسو من أفكاره على عينين ترمقانه في دهاء، وقال: «أيها الصديق تفري.. إن المطران والإمبراطور رجلان لهما غاية واحدة.. هما بالنسبة للحبشة كالذراع اليمنى والذراع اليسرى.. إن ما أقصده هو إصلاح حال الكنيسة، والقضاء على ما في بعض رجالها من انحرافات ومساوئ، حتى يكونوا قدوة صالحة للناس.. وحتى يكتب الله النصر لقواتنا.. إنني في حاجة إلى كثير من الإصلاح والتدبير في شتى مرافق حياتنا ألست معي في ذلك؟؟»

قال تفري وقد فشل دهاؤه: «الإصلاح مطلوب دائمًا»

– «ولسوف أقوم بجولة كبرى في طول البلاد وعرضها لرؤية الأمور عن كثب.. وحتى نرد لك زيارتك الطيبة أيضًا في مقاطعتك، وعلى ضوء ما نلحظه من أمور، تكون سياسة الدولة..

قال تفري: «هذا عين الصواب ..»



الفصل ٥

طفح الكيل، واستبد الضيق «بمالفن».. كانت تشعر أن كابوسًا ثقيلًا يجثم على صدرها، ويكبل روحها، إن حياتها مع تفري قد أصبحت مرة المذاق، تتجرعها على الرغم منها، لكن إلى متى ترضخ لهذا الذل، وترضى بذلك الهوان؟ إن أتعس لحظاتها هي الأوقات التي تقضيها إلى جوار تفري، وهو قلما يخصص وقتًا خالصًا لها، نظراته إليه ترعش جسدها، لمساته تبعث النفور في نفسها، ذلك الوجه الأسود المتصلب يثير لديها الكراهية .. أنه ليس إنسانًا بأية حال من الأحوال. وساورتها الشكوك، لم تر زوجها تفري؟ آه لم يعد ذلك خافيًا على أحد ... تزوجها لأنها حفيدة منليك وشقيقة الإمبراطور إياسو، مجرد صفقة رابحة من وجهة نظره كما يفعل التجار ورجال الأعمال، وتجربتها معه طوال تلك السنين أثبتت أنه يظهر خلاف ما يبطن، ويضحك وقلبه مفعم بالأحقاد، ويرحب الضيوف وهو يعد لهم الخناجر، ويتملق الشعب وهو لا يطيق أن يناقشه أحد الحساب ... صورة من الانحراف البشري التي لا تطاق .. إن قصره يبدو لها وكأنه سجن أسود نحيف، ورجاله وخدمه يبدون وكأنهم عيون مرصودة. لا يكشف لها عن نواياه، ولا يفتح قلبه لها، إنها مجرد موظفة في بلاطه تؤدي دورها كزوجة للحاكم.. إنه ليس الزوج الذي تِحلم به، ليس زوجًا على الإطلاق ...

واجتمعت الأسرة للحفاوة بالضيف تفري، أتت الخالة الأميرة زوديتو، وزوجها «غوغسا»، والأب ميكائيل وأسرته، والأم شو أرقاش، وإياسو وزوجته، وجلسوا في المساء يمرحون. ويستعيدون الذكريات والأيام الخوالي، وتفري جالس في مكانه

كالصنم الأسود يسمع ولا يتكلم إلا نادرًا ، ويرقب الجلوس واحدًا واحدًا ، كأنه واحد من رجال التجسس لا يتحرك ولا يتكلم إلا بحساب ، كان ثقيل الظل ، مقيت السمت ، إذا حاولت زوجته «مالفن» أن تأخذ حريتها في المرح والمداعبة ، سدّد إليها نظرت صامتة كوقع النار المحمي ، إنه يحاصرها ، ويفرض عليها الوقار الغبي ، والتعالي الأجوف . وأخيرًا انسحب إياسو وتبعته أخته «مالفن» . وهتفت به : « إياسو .. إياسو .. هل تسمح لي قضاء بعض الوقت معك؟؟ »

– « هذا يسعدني يا أختاه .. هلمّ إلى حجرة مكتبي ..»

– «لا .. لا .. هناك في الحديقة .. إنني أشعر بالاختناق ، وأريد الهواء .. رائحة الزهور ..»

في كنف إحدى الخمائل ، وعلى مقعد خشبي نظيف جلس الأخوان ، قالت مالفن الجميلة السمراء : « إنني تعسة الحظ يا إياسو »

– «كيف؟ »

ومضت دون أن تجيب : «كالتائهة في بيداء موحشة بلا دليل .. وحياتي ألعن من الموت .. هل من الضروري أن نقيد أنفسنا بالسلاسل والأغلال حتى يرضى عنا الله؟؟ »

قال مندهشًا : « ماذا جرى؟؟ »

– « تفري لا يطاق ، وأنا لا أستطيع العودة معه ..»

– «تلك كارثة يا أختاه .. إن تمرد شقيقة الإمبراطور على تقاليد الكنيسة وشرائعها أمر في غاية الخطورة ، وقد يحرج هذا مركز القصر ، ويثير ثائرة تفري ..»

قالت دامعة العينين : «وما شأني بكل هذا .. إنني لا أريده .. أكرهه .. إن إرغامي على العيش معه أمر مهين .. شيء لا يرض الله .. الكنيسة لا ترى العذاب للناي ، ولا تقر القيود والنفاق إلا إذا كانت الكنيسة منحرفة لا تعرف الله ..»

هز إياسو رأيه : «آه يا بنت ميكائيل .. وشقيقة إياسو .. نفس

المشكلة .. نحن جيل متعب ضائع .. يبحث عن شيء أصيل يتمسك به، يبحث عن ذاته .. مثل شعبنا تمامًا .. آه لم تخبرني عن السبب الذي دفعك لكراهيته ..»

قالت محتدة: «هناك عشرات الأسباب .. لكن أليس لي الحق أن أكرهه لأن قلبي يشعر بذلك؟»

– «في دنيانا هذه لابد أن تكون هناك أسباب، قد تكون أسبابًا مفتعلة، لكن لابد منها: الناس دائمًا يؤكدون اعترافهم بعواطفهم إلا أنهم يريدون تبريرًا آخر .. قد يكون مجرد أكاذيب وتلفيقات، لكنهم يريدونه .. أتفهمين؟ .»

وصدم إياسو صدمة كبرى حينما سمع أخته تقول: «أخاف أن يقتلني ...»

– «يقتلك أنت يا مالفن؟؟ هل جننت؟؟ مستحيل ...»

قالت مالفن وهي تدق الأرض بقدميها: «صدقني .. إنه يفعل ذلك دائمًا .. إنه يقتل الكثيرين بالسم، وأحيانًا لا يشفى غليله إلا إذا ذبح غريمه بيده، إنه لا يفعل ذلك بالمسلمين وحدهم، بل بالمسيحيين أيضًا .. صدقني ..!.. تفري يصل إلى غايته عن طريق الغدر والبشاعة .. هذا الذي يدافع عن الدين، وينحني أمام القساوسة، وضع السم بنفس ذات مساء لأحد القسس. لا أدري لماذا؟؟ لو ارتكب الضحية جرمًا لعولج بطريقة أخرى ... ويتغنى بالتسامح والإخاء، ثم يبعث برجاله ليذبحوا المسلمين كما تذبح الشياه، وبعد ذلك يستنكر جريمته، ويبدي أسفه واعتذاره، ويتوعد الجناة الذين بعث بهم .. ثم ينتهي كل شيء ... آه يا أخي .. إنني أنظر إلى يديه وفمه وهو يتناول طعامه فيخيل إلي أنها مخضبة بالدماء .. شيء مقزز أليس كذلك؟؟؟ ماذا أقول؟؟ أعفني ... لكن لماذا أخفي عنك كل ذلك؟؟ حدث ذات مرة أن صفعت جارية كانت تتجسس عليّ .. فانفجرت غاضبة وقالت كلامًا كثيرًا .. فهمت منه أن لتفري حكومة خفية من الخدم والحرس

والجواسيس والجلادين وبعض القساوسة.. إنه يتصرف وكأنه الإمبراطور المنتظر.. معذرة كان لابد أن أوضح كل شيء ..»

شرد إياسو بضع لحظات ثم قال: «أعرف أنه نذل خبيث.. إنه سبة في جبين المسيحية التي يعتنقها وفي جيش الحبشة التي يدعي حبها ...إنه تلميذ قذر لميكيافيللي ..»

قالت مالفن: «لا شأن لي بميكيافيللي أو غيره.. المهم ألا أعود معه ..»

قال إياسو:

_ «بل ستعودين!!»

صاحت في حنق: «كيف؟؟ وبأي حق؟؟ لن أريق ذاتي وحياتي في سجن ذلك المأفون، فليقولوا عني ملحدة.. عاصية لله.. فليقولوا ما يشاؤون، لكني لن أكون أمة مسترقة ..»

نظر إلى بعيد وتمتم: «لم يؤن الأوان بعد»

– «إن اللحظة معه تساوى دهرًا من العذاب ... أنتم لا تعرفون، فأنا التي تحترق في وقدة الشقاء ..»

– «أعرف ذلك يا أختاه.. فقد جربته واكتويت بناره.. لكن ثقي أنه لا ينضج الإنسان الحر إلا الألم العظيم كما يقول والدنا ..»

لوحت بيده محتجة وقالت: «.. هراء.. الألم لا يكون عظيمًا، إنه يدمر ويحرق ويذهب العقل.. إنه يتلف إنسانيتي ومثلي العليا ..الذين يتألمون قد يشتط بهم التفكير فينحرفون، أو على الأقل يعتبون على الله.. الحقيقة الوحيدة الماثلة أمام أعينهم هي أنهم ضحايا يتعذبون. الثأر يأكل قلوبهم بل ويعميها.. الحقد يلوث كل شيء شريف في أعماقهم يا إياسو.. إرحم أختك يا حبيبي.. لست كالمسيح، فأنا امرأة ضعيفة، واهنة القوى، مشتتة الفكر معذبة الروح ... إن السماء لن ينفعها ألمي العظيم كما تسميه، والألم لن ينضجني، ولكنه سيحرقني ويحيلني إلى رماد.. أجل إلى رماد تذروه الرياح ...»

شرد إياسو، وأخذ يردد: «يقول محمد ﷺ ... «فطوبى للغرباء .. قيل ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال الذين يصلحون حين يفسد الناس ....» نحن غرباء يا مالفن في هذا العالم القاسي الرهيب .. وسيعود الغرباء يومًا إلى مسكنهم .. إلى الاستقرار النفسي والروحي .. وعندما يعودون، فسيتحول الألم إلى نعيم، وتورق الأرض، وتزهر البساتين .. وينتصر الإنسان، ويقف على الأرض حرًا شريفًا، وقلبه معلق بإرادة الله ..»

قالت في ثورة: «لا المسيح ولا محمد استطاعا أن يزيلا عذابي ..»

– «استغفري الله يا بلهاء .. أنت لا تعرفينهما .. لو عرفت عنهما شيئًا أصيلًا لعرفت الله، ومن يعرف الله يمتلئ قلبه باليقين. وتشرق روحه بالحب، وتتحول نيران العذاب إلى برد وسلام ﴿ يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ .. تلك هي الحقيقة نحن البشر كثيرًا ما نخطئ السير، ونضل الطريق لأننا لا نعرف كيف نبدأ، لسوف نشقى وحدنا ... فإذا آمنا أن الله إلى جوارنا فاضت قلوبنا بالقوة والعزم، وعرفنا الطريق ...»

جففت «مالفن» دموعها، ورفعت وجهها الشاحب، وهمست: «تريدني أن أعود»

– «أجل ..»

– «وألعق جراحي في سجن تفري؟»

– «الله معك ..»

– «لكن الوحدة تمزقني، والخوف يفترسني»

– «لن تكون وحيدة إذا دعوت الله ..»

ولعلع صوت زوجة الإمبراطور بين الأشجار من جديد: «إياسو .. مالفن .. أين أنتما؟؟»

قال إياسو وهو يحاول أن يبدد جو الكآبة التي يثقل عليهما: «هذه السانجة تريد أن تلتصق بي ليل نهار ..»

- « إنها تحبك يا إياسو »
- « بل تحب نفسها .. رأسها محشو بترهات وأباطيل ..»
- « وهل تريدها فيلسوفة؟ »
- « أريدها أن تصمت ...، إن مظهرها يوحي بالنضرة والحيوية فإذا ما تكلمت أو أبدت رأيًا ، بدت دميمة شوهاء ..»



الفصل ٦

سار موكب النجاشي إياسو يقطع الوهاد والتلال، ويعبر الأنهار والجبال، ويخترق الحقول، ومعه نخبة من مستشاريه الكبار، وهم كانوا من قبل مستشارين لجده منليك، الفلاحون في القرى - مسلمين ومسيحيين - ينحرون تحت أقدامه الذبائح، والهتاف باسمه ينطلق كالرعد، وتطلع الشيوخ والأطفال والنساء والشباب في هيام وتقدير للإمبراطور الشاب الذي لم يسفك دمًا، ولم يرهقهم بضرائب، أو يستولي على أراضيهم ليهبها للكنيسة أو جماعات التبشير، وكانت تعليقات الجماهير في المدن والقرى وفي أي مكان تصل إليه :

«لقد جادت علينا السماء بهذا النجاشي العادل»

«إننا نحب إمبراطورنا من الأعماق»

«ليس هناك من عيب نأخذه على النجاشي سوى بطانة السوء التي تحيط به»

«هذا النجاشي يعرف الله، والعدل والمحبة»

«نفديه بأرواحنا ..»

«عاش النجاشي العادل»

وفي إحدى المدن الكبرى، تقدم إليه وفد من علماء المسلمين، وبعد أن تقدموا بفروض الطاعة والولاء، قال كبيرهم للإمبراطور :

«أيها النجاشي العظيم .. إن فيض كرمك قد أطمعنا فيك ..»

قال إياسو خجلًا : «إنني أؤدي واجبي نحو شعبي، فأنا ما تسلمت مقاليد الأمور إلا لأحقق للجميع آمالهم في العدل والحرية والرخاء، ما جئت طاغية جلادًا، بل داعيًا والسلام ..»

قال كبير الوفد : «أطال الله بقاء الإمبراطور، وحقق على يديه

الآمال ، وأعز به الأمة ، وفرّج به الغمة ..»

هتف إياسو : «ما هي مطالبكم؟؟ »

- «السماح لنا ببناء مسجد في المدينة ، كي يستطيع المسلمون أن يؤدوا فيه فرائض الصلوات ، ودروس الدين ، فمنذ أن هدمت مساجدنا ، وقامت على أنقاضها الكنائس ، ونحن لا نستطيع أن نجد مسجدًا نأوي فيه إلى الله ..»

قال إياسو : «لا اعتراض على إقامة بيوت الله أكانت للمسلمين أو المسيحيين .. فلتلهج الألسنة باسم الله سواء أكان العابدون مسيحيين أو مسلمين ..»

ومال عليه أحد المستشارين وهمس في أذنه : «سيدي الإمبراطور .. إنها سابقة خطيرة »

قال إياسو : «وماذا في ذلك؟؟ »

- «ستثير علينا نقمة الكنيسة ، وتؤلب الرأي العام المسيحي ، لقد درج آباؤك وأجدادك على غير ذلك ..»

ووثب إلى جواره أحد القساوسة فقال : «مولاي : إن المطران ميتاوس لن يرضيه هذا التصرف ... إن رسالتك الأولى كنجاشي للحبشة هي الحفاظ على الدين المسيحي ، والقضاء على ما عداه من الأديان ، وكل ما عدا ذلك فهو واجبات ثانوية على الإمبراطور : إنك بذلك يا سيدي الإمبراطور تخرق المخطط الذي رسمته الأجيال المسيحية ، وحافظ عليه مجلس الكنائس الأعلى ، وأيدته الدول الأوربية الصديقة ..»

أشاح إياسو بوجهه ، وبدا الاحتقان ظاهرًا في عينيه ، وقال مخاطبًا الواقفين على اختلاف عقائدهم وتصوراتهم : «يا أبناء شعبنا العظيم .. إنني أعلن بكل قوة وإيمان ، أن العهد الحاضر يحمي حرية العقيدة ، ويحارب العنف والاضطهاد العنصري أو الديني ، ولا يرغم أحدًا على اعتناق دين غير دينه ، ويتيح الفرصة لبناء الكنائس

والمساجد، ويفتح الطريق أمام كل الثقافات الأصيلة. إن شعبنا بكل طوائفه وعقائده يجب أن يعبر عن نفسه تعبيرًا واعيًا مخلصًا بعيدًا عن العنف والصراع الدموي والتعسف. لن تستطيع أية قوة أن تطرد فلاحًا من أرضه، أو تخلي قرى بأكملها لتسليمها للمبشرين أو ذوي النفوذ ... إن نظرتنا للأجانب هي نظرتنا إلى ضيوف يجب أن يراعوا أصول الضيافة وتقاليدها العريقة، دون تدخل في سياستنا الداخلية والخارجية وشؤوننا الخاصة ..

وساد هرج ومرج، وانطلقت الحناجر معبرة عن الرضا التام، والتأييد المطلق، فيما جمد المستشارون والقساوسة في أماكنهم، قد أخذتهم المباغتة، وألجمتهم الحجة، ووضوح الاتجاه وأصالته وأشار الإمبراطور بيده كي يصيخوا السمع: «يا أبناء شعبنا العظيم .. لم يزج ببريء في السجون بعد اليوم، ولن يراق دم بغير ذنب، ولن تفرض ضرائب جديدة بدون مبرر قوي، ولن نرحم أي مثير للفتنة مهما كانت سلطته .. إن القانون يجب أن يحمي الضعفاء، ويجابه طغيان الأقوياء ..»

(هدير وهتاف وتأييد تام ..)

وعاد إياسو يقول: «إن مؤسسات الدولة الدينية والمدنية والسياسية يجب أن يكون لها حدود مرسومة، وخطة واضحة، وسياسة سليمة لا تحيد عنها، وعلى الشعب أن يؤدي دوره إلى جانب الإمبراطور .. إن الإمبراطور وحده لا يستطيع أن يفعل شيئًا، أنتم القادرون على تحقيق الآمال، والحفاظ على مبادئنا التي اعتنقناها .. ويجب أن يكون الجميع على استعداد تام لبذل كل الجهود لإنجاح سياستنا الجديدة .. ولسوف تصدر في الأيام القادمة بعض القرارات الهامة لوضع هذه السياسة موضع التنفيذ ..»



اهتزت البلاد من أقصاها إلى أقصاها، وحار المستشارون في أمرهم، فمن قائل: إن الإمبراطور الشاب ماكر خبيث، يجيد الحديث المعسول حتى يكتسب محبة الشعب، ويحظى بتأييده، ويمتص تمرده، ثم يضرب بعد ذلك بيد من حديد، حتى تدين له البلاد، ويفعل ما يريد بعد ذلك كحاكم مطلق اليدين يملي إرادته بالطريقة التي ترضى قصره ورجال كنيسته. وآخر يقول: إنني أتوجس خيفة من هذا الاتجاه الخطر، لقد كان الإمبراطور يخطب في انفعال، لم يبد عليه أنه يمثل أو يفعتل الحماس، وهز أحد القساوسة رأسه، وقال: إن الأمر أخطر مما تظنون.. إن إياسو هو ابن ميكائيل حاكم «وللو».. أعني ابن محمد على المسلم المتنصر.. إن دماء الكفر تسري في دمه.. أيها الأصدقاء نحن أمام أكبر تحد في تاريخ الحبشة، نحن لا ندري بما يدين هذا الرجل أبالمسيحية أم بالإسلام؟ إن الشائعات تحوم حول أبيه يزعمون أنه يخفي إسلامه.. يجب أن نرسل تقريرًا مفصلًا إلى «الأنبا ميتاوس». وقال مستشار آخر: «لا يصح أن نتعجل الأمر، فقد يكون للإمبراطور فلسفة تسامحية بريئة المقصد، لا يقصد من ورائها سوى الأمن والاستقرار، حتى تلتئم الوحدة الشعبية، وتتاح الفرصة للثروة القومية كي تنمو وتزدهر، بعد أن قاست بلادنا الكثير من الفتن والاضطرابات.. إن مصلحة الدولة العليا فوق كل اعتبار» فرد القس: «بل إن العقيدة الدينية فوق كل اعتبار»، فرد عليه الرجل: «إنهما شيء واحد أيها الصديق.. ومصلحة البشر لا تتعارض مع وحي السماء، تلك في رأيي حقيقة بديهية»

قال القس: «هذا تصور خيالي متعسف، إذا ضل البشر الطريق، واضطربت مقاييسهم، وضعف الوازع الديني لديهم، فلسوف يحدث حتمًا تعارض بين الدين والمصلحة العليا..»

– «سيدي القس: إن اضطراب المقاييس والأفكار في نظرك، قد يكون شيئًا آخر في نظر الآخرين، ومن ثم فلا يمكن إصدار حكم

صادق على أمر من الأمور إلا إذا اتسم تفكيرنا بالحياد والموضوعية .. وأنا لا أرى في كلام الإمبراطور خطرًا يذكر إلا إذا اعتبرنا أن المساس ببعض الامتيازات والسلطات الخاصة أمرًا خطيرًا ..»

واجتمع مجلس الكنائس الأعلى، وتحركت جبهات الاستعمار الأوربي، وساد القلق دوائر خاصة تخاف على امتيازاتها ومصالحها، وخاصة عندما صدر مرسوم إمبراطوري بالاستغناء عن المستشارين القدامى، واختيار عدد آخر من المستشارين الجدد، وبعد أن قرر الإمبراطور عدم صرف أية إضافات أو إعانات لميزانية الكنائس والنشاط الديني إلا بعد تبيان أوجه الصرف وتقدير ضرورتها.

وكان من المستبعد أن تمضي أمور الإمبراطور هينة، دون أن تقام في وجهه العقبات، أو ترتكب الحماقات، ففي ليلة مظلمة بينما كان الإمبراطور يقضي ليلة في بيت متواضع قائم على أحد السفوح سمع هرجًا وضجة كبرى. أفاق من نومه، وهرول نحو الباب، وصاح بأحد الحراس: «ماذا جرى؟؟»

- «مولاي الإمبراطور .. معذرة يجب أن تأوي فورًا إلى فراشك إن الظلام دامس. ونحن لا نعرف من أي اتجاه يأتي الخطر ..»

قال الإمبراطور بصوت قوي حاسم: «أشعلوا القناديل .. وابعثوا بكوكبة من رجالنا يكتشفوا المنطقة .. ماذا جرى؟؟»

وساد الصمت عندما رأى الإمبراطور عشرة من الجنود يجرون أحد الرجال الملثمين. ينطق الشر في عينيه، قال الإمبراطور: «ما هذا؟؟»

- «غادر أراد أن يرتكب إثمًا كبيرًا ..»

وهنا قال الرجل المقبوض عليه: «جئت لقتلك .. إن الإمبراطور الذي يسمح ببناء المساجد إنما هو شيطان كافر ليس له عقوبة سوى

القتل .. لست آسفًا على كنت أنتويه ، وإنما أسفي لأنني لم أؤدِ المهمة المقدسة .»

وهتف الإمبراطور : «دعوه . فكوا وثاقه . اتركوه لي ..»

ذهل الجاني ، وتدلى فكه الأسفل ، «يريد الإمبراطور أن ينفرد بي ، ثم يذبحني بيديه . جزاء ما عقدت عليه العزم »

- « أيها الإمبراطور .. أنا لا أخاف الموت .. لقد فعلت ما فعلت دفاعًا عن الدين والشرف .. قطعت التلال والوديان . وعبرت البرك والغابات .. كنت سعيدًا غاية السعادة .. أجل .. من أجل الدين والشرف ..»

قال إياسو : « أيها الرجل ألم تقرأ في الإنجيل « الله محبة » « ب .. هـ »

- «لم أقرأ في الإنجيل . ولكني سمعت نصائح القساوسة .. والإنجيل لا دخل له في ذلك . كل ما أعرفه أنك تحب المسلمين ، وتبني المساجد ، ولا تعمل لنصرة المسيحية ونشرها .. ليست أن تترك الكفر يستشري ، أو تكتم صوت الأجراس ..»

وهز إياسو رأسه وقال : «خذوه حتى الصباح ..»

وسرى النبأ في كل مكان ، وهدرت جموع الشعب غيظًا وحنقًا ، وطالبت بتسليمها المجرم كي توقع عليه العقاب الذي يستحقه بنفسها ، وهكذا وجد إياسو نفسه في وضع لا يسمح له بالتخفي بعد اليوم ، يجب أن يعلن على الملأ إسلامه .. ولو كان ثمن ذلك أن يضحي بعرشه وبحياته ... لن يسجن نفسه وفكره في سجن الخوف والاختفاء بعد اليوم ، لن يمضي في نفس الطريق الذي مضى فيه أبوه ..

إن إياسو غير ميكائيل .. غير محمد علي ..



الفصل ٧

بزغت ابتسامات على شفاه المساكين، ونفض المعذبون عن كواهلهم أعباء الأسى والخوف، ورفع المصلون في أنحاء الحبشة أياديهم يشكرون الله، ويدعون أحر الدعاء أن يحمي الله الإمبراطور لشاب ويقيه شر الغدر والخديعة. وفاضت المآذن بالتكبير والتهليل. وانتصرت إرادة الله.. أيها الصابرون لتجنوا ثمار صبركم ورضاكم بقضاء الله.. هكذا كان يقول لسان الحال. لقد أعلن إياسو إسلامه، وأنه ينتمي إلى أصل عربي يمت بصلة لنبي الإسلام. ولبس العمامة، وارتدى الزي الإسلامي المناسب لذلك العصر، وارتفع علم الحبشة في الآفاق مرفرفًا بعد أن كتبت عليه عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله». وأعلن إياسو للجميع أنه قد اختار العقيدة التي اقتنع بها فكره، ومال إليها قلبه، وأن المسيحيين والمسلمين برغم ما حدث إخوة لا فرق بينهما. وأن الجميع على اختلاف مللهم، ونحلهم سيجدون لديه العدل والمحبة والرعاية الكاملة، فعقيدة كل إنسان أمر يخصه، ولن تنعكس على شتى أفراد الرعية إلا بالخير والحب، فلينطلق الآذان في المساجد، ولتدق الأجراس في الكنائس، فالرب واحد، وغاية الأديان إسعاد البشر، وتقويم أخلاقهم والخضوع لله وحده وسيادة القانون والإخاء والمساواة، دونما تعصب أو إرهاب أو استغلال، ودون إراقةٍ لدماء البشر.

قال ميتاوس المطران الأكبر: «هذا المرتد خان الله وخان الشعب ..»

قال أحد القساوسة: «لقد وجب قتله، لماذا لا نصدر بيانًا بعزله ..»

قال ميتاوس : «كيف نطلب من الشعب أن يقتل الرجل الذي يدعو إلى الحب والإخاء والحريات . لقد رفض أن يوقع إياسو على الحكم بإعدام الرجل الذي حاول قتله ، أما العزل فنحن لا نستطيعه ، الضعفاء لا يعزلون الأقوياء ، إن أي قرار من هذا القبيل سخف وقصر نظر ، التغيير لا يفرضه إلا مركز القوة ، لقد كانت قوتنا في عهد منليك نابعة من إيمانه بمخططاتنا ، وانصياعه لآرائنا ، أما الوضع الآن فهو يختلف تمام الاختلاف ، فالمسلمون قد انتعشت روحهم المعنوية ، وهم على استعداد أن يبذلوا دماءهم فداءً لإياسو ، لأنه أملهم المرتقب ، ثم إن لديهم الإمكانات التي تكفل لهم النصر ، أما المسيحيون فقد استجاب عددٌ كبير منهم لاتجاهات إياسو التحررية والإنسانية .. والوثنيون يكرهوننا ، بل إن أعدادًا كبيرة منهم أخذوا يعتنقون الإسلام .. فلم يبق أمامنا إلا الانتظار وانتهاز الفرص ما لم يئن الأوان بعد لكي نضرب ضربتنا .. إن الفرنسيين والإنجليز على استعداد للتعاون معنا ، وبعض الرؤوس – حكام المقاطعات – هم الآخرون لن يدخروا وسعًا في شق عصا الطاعة على إياسو والقضاء عليه .. وأملنا كبير في الرأس «تفري» إنه صهر الإمبراطور إياسو ، لكن «تفري» على استعداد لأن يشنق أباه إذا خان السيد المسيح ..»

– «لن نستطيع الصبر .. إني أكاد أجن .. الموت لهذا الخائن ..كيف يجرؤ على إعلان إسلامه .. إن تولي السلطة في الحبشة لا يصح أن يكون لمسلم .. هذا عار الأبد ، وسبة لأجيال ، نحن في حاجة إلى منليك جديد أو تيودورس آخر ..»

قال ميتاوس : «ليس لدي ما أضيفه .. الوقت لم يحن بعد» .

قال أحد الجالسين : «ولماذا عقدنا الاجتماع إذن؟؟ ألكي تقول لنا أن إياسو في مركز القوة ، وأننا ضعفاء ، وأن الشعب يحبه .. لكأنما جئت هنا يا سيدي المطران لتؤكد لنا أن الهزيمة قد حلت بنا ..»

قال ميتاوس : «لا أقول ذلك ، بالضبط ، إن الصبر لا يعني

الاستسلام، وإتاحة الفرصة للتدبر لا يعني الهزيمة، إن حلفاءنا الغربيين مشغولون بتركيا وألمانيا، والحرب قد شملت رقعة كبيرة من العالم، ومثل هذه القضايا الخطيرة يجب أن تعالج بحذر، وبحساب دقيق، فإذا ما واجهنا إياسو في معركة مكشوفة، وخسرناها، فقد سقطت الحبشة إلى الأبد في أيدي المسلمين، إن هذا الشاب إياسو عبقري متوهج الحماس، لكن فيه نقطة ضعف خطيرة ..»

رد الجميع قائلين: «ما هي ..»

- «طيبته وصراحته ..»

- «كيف؟؟»

- «ومن هنا نستطيع الكشف عن نواياه ومخططاته، وضربه في اللحظة الحاسمة، لقد استطعت إقناع زوجته بالانحراف الخطير الذي انزلق إليه زوجها الإمبراطور .. والآن هي عين لنا هناك .. إنها تحبه .. لكنها تحب دينها، وهي تحاول التوفيق بين هذين الاتجاهين .. إنها تتمزق، ولكني أفهمتها أننا لا نريد سوى إصلاحه، وإعادته إلى طريق المسيحية، وسنحميه بأرواحنا، ولن نرتضي إمبراطورًا غيره. وقد صدقت وارتاح بالها، وأنا على اتصال دائم بها. وأمه «شو» العجوز، لم تعد ذات نفع يذكر .. أما أبوه ميكائيل فهو الشر المستطير .. إن نكبتنا قد تولدت من أفكار هذا الرجل المتنصر الذي لا شك في أنه يخفي إسلامه ..»

وخرج الأب ميتاوس من الاجتماع، ودوي هائل يطن في رأسه، إن الهزيمة المعنوية تثقل على روحه، وآذان المؤذنين يقلق مضجعه، إن في حجرته الخاصة عشرات التقارير الواردة من أنحاء البلاد، وكذلك الواردة من قناصل الدول الأوروبية وخاصة فرنسا وانجلترا. . وإيطاليا أيضًا، الكل مجمع على خطورة الأمر، والكل مجمع على خطورة إياسو بالنسبة لمستقبل الحركة الصليبية في الحبشة،

وبالنسبة للأوضاع العالمية التي تهزها الحرب هزًا عنيفًا ..

« آه .. الرأس «تفري» هو الأمل المنشود .. إن الأسلحة الآن تتدفق على مقاطعته ، وإعداد الجنود يجري سرًا ، والخبراء الأجانب يبذلون الجهد الجهيد لإنماء قواته المسلحة .. وإياسو لا يؤمن بأن الطعنة قد تأتيه من زوج أخته مالفن ، ورفيق الدراسة . . ذاك الرجل الصامت الجامد الملامح ، المحدود الذكاء ، الذي يمتلئ قلبه بغموض وأسرار مخيفة .. لكنها لن تصل إلى درجة الغدر بشقيق زوجته الإمبراطور إياسو الذي تولى الملك بطريقة شرعية ، مدعمة بتأييد شعبي واسع النطاق .. أجل الرأس تفري هو الأمل المنشود .. هذا العبد المطيع لأوامر الكنيسة وطقوسها وأفكارها .. والذي يغمض عينيه عن مهازل بعض رجال الدين وانحرافهم .. لسوف يأتي غدًا ..»

وعندما قدم «تفري» سرًا إلى « أديس أبابا » ذات مساء استقبله ميتاوس قائلًا : « أنت مبعوث العناية الإلهية ..»

– «جئت أروي الأرض بدموعي ندمًا على ما حدث ..»

– « لا تبك من أجل ذنب أتاه غيرك »

– « إنني أيها المطران العظيم على أتم استعداد لأن أحمل الصليب وأتعذب وأموت فداء للمساكين ..»

قال ميتاوس في إصرار : «بل لتحمل سيفك ، وتجتث أساس الفساد ، وتشفي جراح المصدومين .. لن تجدي الدموع ، فالطريق لا يمكن قطعها ، وبلوغ نهايتها إلا على أشلاء الكافرين ..»

قال تفري في نبرات واضحة هادئة : «لقد عاهدت الله أن آخذ العرش وأحمله لسدنة الكنيسة كي تفعل به ما تشاء ، إن دوري لن يخرج عن كونه دور جندي يؤدي واجبه باستماتة ، ثم يعود من حيث أتى مرتاح البال والضمير ، هانئ الذكريات ، يصلي للمسيح شكرًا .. ولا شيء غير ذلك »

ولم يغب عن ذهن تفري معنى العبارة التي قالها ميتاوس بعدئذ :

« إن العرش جدير بمن يحميه ، ويحفظ له كرامته وصبغته الدينية أيها الصديق تفري ..»

وأخذ الرجلان يبحثان الموضوع من كل نواحيه ، ويقلبان أوجه الرأي فيه ، ويرويان الاتصالات الجارية بينهما وبين قناصل الدول الأوربية الحليفة وممثليها ، والإعدادات المتصلة للمعركة القادمة ، والوقت المناسب لإشعال نيران الحرب ، وبعد أن استقر قرارهما على نقاط محددة قال ميتاوس : « ومتى ترحل؟؟ الليلة؟؟ »

قال تفري في خبث : « هل من اللائق أن أكون في العاصمة ولا أزور صهري؟؟ »

قال ميتاوس في دهشة : « إياسو؟؟ »

– « أجل .. إياسو .. ألا ترى أنه من الواجب أن أقدم له ولائي ، وتأكيد ثقته بي؟؟ » .

– «تفري!! أنت طاقة هائلة من الذكاء والفطنة .. يجب أن تأتي الضربة وهو مطمئن حالم ، يهيم بين السحب والشعر ، والمثل العليا ، وآبائه الأطهار من بني قريش ..»

وسارت فترة صمت ، قال ميتاوس بعدها : « إن عيبك الوحيد ، هو زواجك من أخته «مالفن» ..»

ضحك تفري ضحكة وقورة وقال : «بل إنها ميزة .. وفائدة كبرى . أكان يمكن أن أدخل قصره وأجوس خلاله كفرد من أفراد الأسرة ، وأرصد له العيون إن لم أكن زوج «مالفن» ، ثم من تكون مالفن؟؟ إنها مجرد وسيلة ، تؤدي دورها المرسوم منذ زمن بعيد دون أن تشعر . لا يمكن أن يتصور أحد أن الضربة قد تأتي الإمبراطور من زوج أخته .. سيدي المطران . إن مالفن لا شيء .. لقد وهبنا الله حسن التبرير ، وصدق التفكير ، لأننا جنوده وأبناؤه .. وحماة الكنيسة وأهدافها ..»

كانت زيارة تفري مفاجئة ، وبدا أن إياسو لم يكن على استعداد لها

في هذه الظروف الحرجة، لقد شعر إياسو بالضيق والاضطراب، إن رجلين على طرفي نقيض في العقيدة والرأي والسلوك يلتقيان، لا تربطهما غير أواصر المصاهرة، ونظام الدولة، وبين قلبيهما متاهات تضل فيها العقول، وتغشى الأبصار، وإياسو يكره النفاق والمداواة، غير أن تفري أدرك كل ذلك قبل أن يأتي، ومن ثم قال لإياسو : «عفوًا سيدي الإمبراطور، على الرغم من أنني مسيحي متمسك بدينه، وأنت مسلم متشبث بإسلامه؟ إلا أن هذا لا يفسد ما بيننا من ود وصلة عائلية وطيدة .. إن تقبل الشعب الحبشي للحرية العقائدية التي رفعت لواءها قد أثلج صدري، ودلّ على وعي شعبي رشيد، والدين مسألة خاصة لا تؤثر في علاقات الأسرة، ونظام الحكم، إنني أعرف أن الكنيسة قد تضايقت بعض الشيء، وهذا أمر طبيعي بالنسبة للمتحمسين من رجال الدين، ولكنه بالنسبة للمثقفين المنفتحي العقول مثلي ومثلك أمر بسيط غاية البساطة، إن ما يهمنا هو استقرار الأمور في البلاد، ولمّ الشمل، ورفاهية الأمة، وهذا هو غاية كل حاكم رشيد، واجتماعنا على هذه المعاني يبدد الكثير من القلق وسوء الظن وأوهام الفتن ..»

وقال إياسو وقد انطلقت أساريره : «أتؤمن بذلك يا «تفري؟؟»

– «أعمق الإيمان يا سيدي الإمبراطور»

– «لشد ما تغيرت!!»

– «إن الخبرات وطول التجارب تعلمنا الكثير، وخاصة في ذلك العالم الذي يموج بالحروب والاضطرابات ... والحقيقة يا سيدي الإمبراطور أنه تغير طفيف، فما زلت تفري الذي يؤمن أشد الإيمان بعقيدته المسيحية، لكني لا أرى في ذلك تعارضًا مع نهوضنا معًا بأعباء الواجب الوطني .. والشعب كله بشتى طوائفه يرى مثل هذا الرأي، على الأقل في المقاطعة التي أحكمها .. لن أخدعك يا سيدي .. لقد حزنت عندما أعلنت إسلامك : لكني سرعان ما أدركت الحقيقة،

فهدأ خاطري واطمأن بالي ، ولعل قلقي كان نابعًا من خوفي . . أعني كنت أخاف أن تنقلب على المسيحيين فتبيدهم .. لكن اتضاح الأمور قد ألغى هذا القلق ، وقضى على تلك المخاوف والشكوك ، لقد أثبتت الأيام أنك أكبر من هذه التعصبات المقيتة .. معذرة لقد ظن البعض أنك ستثأر لما لاقاه قوم أبيك في « وللو » عندما دهمها جدك منليك ..»

قال إياسو : «لشد ما تعجبني صراحتك يا تفري!! إن الإنسان المؤمن القوي الإيمان يجب ألا يغرق نفسه في مستنقعات الحقد والأنانية ، أو يرمي بنفسه في حمأة الثأر الأعمى . فيطيح بالظالم والمظلوم . كان جدي منليك مسيحيًا ، وكان أبي مسلمًا ، وكانت أمي مسيحية . . إنها إرادة الله .. ويسعدني أن أحمل في قلبي نفحات الرضى من عيسى ومحمد .. إنني كمسلم الآن أؤمن بعيسى وبجميع الأنبياء .. إن الجميع أهلي وشعبي وأصدقائي سواء المسيحي منهم والمسلم .. إني أرى في نفسي – دون غرور – رمزًا لهذا اللقاء الأخوي بين الأديان ..»

اتسعت ابتسامة تفري وقال : « ما أروع كلماتك يا مولاي!! »

– « لأنها صادرة من قلبي يا تفري ..»

– « حفظك الله ونصرك ..»

وحرص تفري على أن يشيع في جميع الأنحاء أنه أتى لإعلان ولائه للإمبراطور ، وعلى الرغم من أن تلك الأنباء قد أقلقت رجال الكنيسة وسدنتها ، إلا أن ميتاوس ابتسم في خبث وقال : «أيها الداهية تفري .. لا شك أنك رجل الأقدار المرتقب .. إن عقلك الخبيث يستطيع أن يمسك بزمام الأمور في الحبشة لعشرات السنين .. لقد رضيت عنك الكنيسة ورضي عنك الحلفاء الغربيون .. وهذا كسب لنصف المعركة مع ذلك الساذج الأبله إياسو . . .»



الفصل ٨

عاد الإمبراطور إياسو فجأة ذات ليلة في غير الموعد المعروف، ولم يجد زوجته بالقصر، سأل أمه «شو أرقاش» فلم يجد لديها ما يشفي تساؤله، واستفسر من الوصيفات، فلم تهده إحداهن، غير أن بعض رجال الحرس قال: إن الإمبراطورة قد غادرت الباب الخلفي للقصر ومعها خادمة وحارس، ولا يعرف بعد ذلك أين ذهبت على وجه التأكيد.

– «يا للكارثة .. إذن فقد صدق ما يزعمون .. كنت على يقين أنها امرأة قصيرة النظر، فارغة القلب. أيمكن أن يكون هناك رجل آخر؟؟» اشتط به الشك، ونازعته الهواجس، وانتفض جسده من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وشعر بلفح كالنار المجنونة يحرق أمنه وسعادته، نعم هي ليست المرأة المثلى التي كان يحلم بها، وهي لا تملأ حياته، ولا تروي لهفات قلبه، ومع ذلك فقد رضي بها، وأغدق عليها ما يستطيع رجل في مركزه وعدله وذكائه أن يغدقه على امرأة، حاول جاهدًا أن يشبع تطلعاتها، ويملأ فراغ حياتها، وإن ساد علاقته بها فتور وضيق في بعض الأوقات، وأيًا كان الأمر، فمن المحزن أن تفكر زوجته في رجل آخر، كأنْ تترك القصر – وهي زوجة الإمبراطور – دون إذن منه، ماذا يقول الناس؟؟ «أفي الوقت الذي أعلن فيه إسلامي، وأخلص عقيدتي من أدران الزيغ والشرك. أفي مثل هذا الوقت تهوي زوجتي إلى الحضيض، وتتمرغ في الأوحال؟؟» وفكر إياسو في بداية الأمر أن يكظم أساه، ويأوي إلى حجرته صامتًا مكتئبًا حتى تعود زوجته، لأن أي تحرك قد يجلب عليه الفضيحة، وسرعان ما يستغلها الأعداء، ويتهامسون بها في كل مكان، فتزلزل قوائم عرش، وتلصق بصفحته البيضاء النقية عارًا أي

عار ، إن الأعداء كثيرون ولن يتركوا مثل هذه الفرصة النادرة دون أن يستغلوها أبشع استغلال ، وهكذا وجد الإمبراطور نفسه في مأزق حرج لا يدري كيف يتصرف إزاءه .

وبينما كان يهرول قاصدًا حجرته الخاصة ، سمع وصيفة زوجته تقول : « مولاي » ... أدار إليها وجهًا شاحبًا وقال : « ماذا تريدين؟؟ »

– « من الخيانة أن أخفي عليك شيئًا هامًا يرتبط باسمك الكبير »

ودق قلبه في عنف ، واضطربت مفاصله : « تكلمي .. ماذا تريدين أن تقولي؟ »

– « إن مولاتي قد ذهبت إلى قصر صغير ملاصق للكنيسة الكبيرة في وسط المدينة .. هذا كل ما أعلمه ..»

هذه نقطة جديدة ، لقد كان يعلم فقط أن زوجته تغادر القصر من آن لآخر أثناء غيابه ، ولم تزد المعلومات الخاصة التي حصل عليها أكثر من ذلك . وها هي الوصيفة تحدد بدقة المكان الذي تتجه إليه . لم ينتظر أكثر من ذلك ، لابد أن يقطع الشك باليقين ، لا بد أن يداهمها في وكر الشيطان ، إن إياسو يكره أن يبقى الأمر هكذا معلقًا دون أبعاد واضحة ، ولن يحيل قلبه مرة أخرى إلى مزرعة للشك القاتل .

والتفت إلى الوصيفة قائلًا : « ماذا تفعل هناك؟ »

– « لا أدري يا مولاي ..»

– « كوني صريحة .. أهناك رجل آخر؟؟ »

بهتت الوصيفة ، وهتفت في خوف : « هذا لم يخطر على بلي يا مولاي ، إنني لا أدري حقيقة الأمر ولا أعرف أكثر من ذلك ، مستحيل أن يتطور الأمر إلى هذا الحد ...»

– « وما دليلك؟؟ »

– « تصوُّري الخاص .. إن مولاتي تحبك أعمق الحب »

– « أشكرك »

لم يضع وقته سدى ، هتف بسائق عربته ، وهرول إليها تحت جنح الظلام ، وانطلقت العربة دون أن يحيطها الحرس الإمبراطوري ، أو تدق الطبول ، أو تخلى الشوارع ، كان قلبه يلهث . وعلى الرغم من إسراع السائق إلا أنه شعر إن الوقت يمر ببطء ثقيل . وأن الدنيا في عينيه أمست ضيقة مقيتة ، إنها طعنة لم يكن يتوقعها في هذا الوقت بالذات .. ومع ذلك ألا يمكن أن يكون الأمر كله مجرد حماقة بريئة لا ضرر منها ، ولا خطورة تكمن فيها؟؟ إنه يدعو الله من أعماق قلبه ألا تتحقق هواجس وشكوكه ، وأن تكون زوجته بريئة طاهرة لم تقترف إثمًا ، وبدت له هذه الأمنية وكأنها أمل كبير عسير التحقيق يرتبط بوجوده ، وأنه على استعداد لأن يقدم على أية تضحية وأن يدفع أي ثمن مقابل تحقق هذه الأمنية الغالية ..

– « مولاي ها هي الكنيسة .. وها هو القصر » .

– « حسنًا .. لتبعد عن هذا المكان بعد أن أغادر العربة ، ولتبق في انتظاري حتى أخرج .. لا تكلم أحدًا .. أتفهمني؟؟ »

حينما طرق باب القصر ، فوجئ بأحد رجال حرسه يفتح له الباب ، وصاح الجندي في ذعر : « مولاي »

– « ما الذي أتى بك إلى هنا؟ »

– « أنا .. أنا .. مولاي ...»

ثم جثا على ركبته ضارعًا : « لتغفر لي يا مولاي .. إنها خطيئة كبرى ...»

جذبه الإمبراطور من كتفه حتى وقف ، ثم هزه في عنف وقال : « الإمبراطورة .. أين هي؟؟ »

– « إنها هنا يا مولاي .. بالداخل مع ...»

– « مع من؟؟ تكلم ...»

– « مع المطران الأنبا ميتاوس »

قال الإمبراطور في دهشة : « ميتاوس؟ كيف؟؟ ولماذا؟؟ »

وهرول إياسو إلى الداخل ممسكًا بالحارس : «تلك هي الحجرة يا مولاي ..»

طرق الباب في عنف ، ثم دفعه ..

كان المطران يجلس في صدر الغرفة يغمره الضوء ، وعلى مسافة مترين تجلس الإمبراطور الشابة ، ورجل ثالث – أحد القساوسة . ولعله سكرتير المطران يجلس على يمين سيده .

هب المطران شاحب الوجه مرتعش الأصابع . وتمتم في صوت خفيض يوحي بالخوف والقلق والحيرة «مولاي ..» بينما صرخت الإمبراطورة في رعب « إياسو » .

قال المطران مصطنعًا الابتسام : «إنه لشرف عظيم أن يشاركنا الإمبراطور صلاتنا ودروسنا ..»

قال إياسو : «لم يكن لي علم بذلك من قبل ، وما دعاني أحد ، وأظن أن الوعظ والصلوات ليس هناك مبرر بأن تؤدى هكذا بطريقة سرية ..»

ارتاحت نفس إياسو ، ليس هناك رجل آخر يعبث بشرفه ، وليست امرأته بالتي باعت نفسها لشيطان الجسد ، وما دام الأمر كذلك فإن أي خطأ ارتكبته بعد ذلك قد يهون ، وقال إياسو وقد استرد رباطة جأشه ،وتمالك أعصابه : « إنني أحترم عقيدة زوجتي المسيحية ، ولا اعتراض لي على أدائها الصلوات أو تلقي الوعظ ، لكن لماذا لم يخبرني بذلك أحد؟؟ هل من اللائق دينًا وعرفًا أن تترك الإمبراطورة قصرها دون علم زوجها؟؟ إنني لم أفرض على زوجتي عقيدتي ، وتركت لها الخيار ، ومن ثم فلتؤد شعائرها في الوقت الذي تشاء .. ومع ذلك فإني أعتقد أن الأمر أكبر من ذلك ..»

شهقت الإمبراطورة باكية ، وأسرعت نحو زوجها ، وارتمت تحت قدميه مستغفرة نادمة : « ارحمني يا إياسو ، لم أستطع أن أعصي أمر أبانا ميتاوس لأنه أمر الله ، إنني حائرة .. معذبة .. يائسة .. ارحمني

يا إياسو » .

قال الإمبراطور في هدوء ، وهو يرمق ميتاوس بنظرة عاتبة : « هيا بنا أيتها الزوجة الفاضلة .. كفاك صلوات ووعظيات الليلة .. فليسمح لنا الأب ميتاوس » .

تقاطرت حبات العرق على جبين ميتاوس ، وشعر بحرج بالغ ، وتمتم : « إنني بمثابة الوالد لكم جميعًا .. ربما أكون قد جانبت الصواب . وكان علينا أن نطلب منك الإذن بذلك .. ولهذا فأنا أقدم اعتذاري » .

ولم ينس أن يقول : «ومع ذلك فإن الأمر مجرد صلوات ووعظيات ..»

وقال للإمبراطورة : « أليس كذلك؟؟ مجرد صلوات ووعظيات ..»

فلم تجب الإمبراطورة ، وتركت الحجرة مطأطئة الرأس ، دامعة العينين ، حزينة الفؤاد تكاد تسقط إعياء ، بينما هز إياسو رأسه في وقار وهو يقول : « عمت مساءً أيها الأب ميتاوس .. إلى اللقاء ..»

وانطلقت بهما العربة عبر الشوارع ، وقد ران عليهما صمت ثقيل ، وأنين الإمبراطورة الخافت ، يتناهى إلى سمعه برغم الضجة التي تثيرها العربة ، ورأس إياسو نهب لدوامات عنيفة من التفكير . « هذه الحمقاء تجلب لي المتاعب ، وترتكب المزيد من الحماقات ، لقد حاولت أن أعاملها كإنسانة حرة . وأن أغدق عليها ما أستطيعه من حب واحترام : كنت مؤمنًا أن أبغض الحلال إلى الله الطلاق ، وظننت أن تآلف الإمبراطور المسلم والإمبراطورة المسيحية فيه معنى كبير لا يخفى على ذوي العقول ، لكي أضرب المثل لهذا الشعب . . المثل الذي يجب أن يعيه جيدًا .. أنه في الإمكان أن تحيا العقائد الدينية متآلفة متآزرة دونما تعصب أو جمود أو كراهية ..»

وعندما ضمتهما حجرتهما الخاصة ، قال الإمبراطور : «ماذا كنت تفعلين هناك » .

انفرطت دموعها من جديد، وعادت لطلب الرحمة والصفح والاعتراف بالخطأ.

فقال إياسو مصرًّا: «يجب أنْ أعرف الحقيقة ..»

– «كنت ألتمس البركات، وأؤدي الصلوات ..»

– «هذا ما يجب أن تقوليه، أما الشيء الآخر؟؟»

– «ماذا تقصد؟؟»

صرخ فيها بحدة: «أنت تكذبين. أنت تجعلين من الصلاة ستارًا تخفين وراءه القذارة والعفة ..»

– «لا شيء أكثر من الصلاة يا إياسو ..»

– «تكذبين للمرة الثانية، وليس ذلك من طبع المرأة الصالحة التي تحرص على تأدية شعائر دينها».

لم يكن إياسو من السذاجة بحيث يصدق زعمها أو زعم ميتاوس، كان واضحًا أن الأمر أخطر من الشعائر والوعظ، وميتاوس ليس بالرجل الهين. ولم يغب عن فطنة الإمبراطورة أن اعترافها بما جرى بينها وبين المطران قد يهدم كل الثقة المتبادلة بين زوج وزوجته، إنها مأساة بشعة تعيشها امرأة تحب زوجها، وتجلس إلى جواره على أعلى قمة في البلاد، لقد ضاق حولها الخناق، فإذا أصرت قولها، فهي كاذبة تخون قداسة الرباط الزوجي، وإذا تكلمت الحق ففي ذلك هو الآخر الاعتراف بالتآمر والغدر.

قالت الإمبراطورة: «ليس هناك رجل آخر يسكن قلبي، لم أطعنك في شرفك ..»

قال إياسو محتدًا: «إن هذا الكلام نفسه يثيرني، أنا على يقين تام من أنك لم ترتكبي حماقة من هذا النوع ..»

– «ليس لدي ما أضيف يا إياسو الحبيب .. ألا ترحم عذابي؟؟ لقد أخطأت وهذا يكفي ..»

قال في أسى: «إنك تصرين على عنادك. وما أظن الحياة بيننا

يمكن أن تسير على هذا المنوال ، فلا زواج بغير ثقة ، ولا حب بغير صراحة ، وأنت تدمرين أحلام الحب والسعادة والثقة التي كنت تنعمين في ظلالها .. إنني أحملك تبعة ما أقدمت عليه من طيش ..» .

وعاد الصمت يلف الحجرة من جديد ، ومضت بضع دقائق ، كانت الإمبراطورة خلالها تعبث بأناملها تارة ، وبخصلات شعرها تارة أخرى ، وعيناها ما زالتا مبللتين بالدموع ، بينما بقي إياسو شاردًا ، ثم قال وهو يهم بالخروج من الحجرة : «ليس الأمر لغزًا كما تتوهمين ، ففي إمكاني أن أتصور ماذا يمكن أن يحدث بينك وبين ميتاوس . فهناك مشكلة واحدة تهم المطران وسيظل يفكر فيها ، ويحوم حولها ، ويبحث لها عن حلول .. المشكلة هي ببساطة هذا النجاشي المسيحي الذي أعلن إسلامه .. هذا هو كل شيء ..»

لحقت به الإمبراطورة عند باب الحجرة وقالت : « إلى أين؟؟ »

– « سأنام في حجرة أخرى »

– « أتتركني وحدي يا إياسو؟؟ »

– « أنني أكره النفاق والمصانعة .. والكذب أيضًا .. ومن ثم فلست بقادر على أن أبقى مع هذه الرموز السوء في حجرة واحدة ..»

قالت في حزن : «لا تكن قاسيًا يا إياسو .. إنني أخطأت .. أنت تعرف كل شيء .. لقد أقسمت على الإنجيل أن أحتفظ بالسر .. كانت خدعة ماكرة ، لقد أخبرني ميتاوس أن العذراء تجلت له في خلوته ، وقالت له عليك بالإمبراطورة إنها هي مفتاح الخير للمسيحيين .. فعن طريقها تستطيعون إعادة الهارب من جنة يسوع .. لم أفهم – إلا أخيرًا – أنني مجرد جاسوسة على زوجي لقد طلبوا مني بعض الأوراق والمستندات فقدمتها لهم كأمر العذراء .. وسألوني عن أكلك وشربك ، ونومك ويقظتك وأفكارك وأصدقائك وأعدائك .. سألوني عن كل شيء .. كانوا يؤكدون لي أن هذا من أجل مصلحتك ومصلحة البلاد العليا .. لكم يعز عليهم وعليَّ أن تحرم من جنة يسوع في العالم

الآخر .. لم أتصور أن يقذف إياسو حبيبي إلى الجحيم مع العصاة والمذنبين .. ومن ثم قدمت لهم كل ما يريدون ..»

تمتم إياسو في أسى : « الجنة ليست إقطاعية لميتاوس .. إنها جنة الله .. خالق يسوع وميتاوس .. وبارئ الأرض والسماء والناس بمختلف مللهم ونحلهم .. هؤلاء المتعصبون هم الجحيم بعينه .. أتفهمين؟؟ أي زوجتي الإمبراطورة التعسة يؤسفني أن أقول :

« أنت طالق ..»

صرخت كالجنونة : «مستحيل .. مستحيل .. إياسو .. ملعون هذا المدعو ميتاوس .. ملعون كل شيء .. إنني أريدك أنت .. أنت حياتي وجنتي وروحي .. إياسو .. إياسو ..»

لكنه صفق الباب في عنف بعد أن خرج ..

بينما قدمت أمه « شو أرقاش » لتستجلي حقيقة الأمر ؛ وتمتم بينه وبين نفسه : « إن الخونة عقوبتهم الإعدام .. أو الطلاق على الأقل ..»

وتذكر إياسو ذلك المشهد الخالد في رواية شكسبير «حتى أنت يا بروتس!!»



الفصل ٩

أرسل «تفري» إلى الأنبا ميتاوس رسالة خطيرة ردًا على إحدى رسائله، قال فيها تفري:

«عزيزي المطران الأعظم، تلقيت ببالغ الغبطة والسرور رسالتكم الأخيرة، وشدني إليها ما استطعت الحصول عليه من مستندات ووثائق خطيرة، جلبتها لنا زوجة الإمبراطور؛ تلك المرأة الصالحة، التي سيكون لها دور بارز في تاريخ شعبنا، ولقد دهشت أيما دهشة عندما تلقيت تلك المعلومات ذات الأهمية الخاصة والمتعلقة بالمفاوضات «السرية» التي كانت تدور بين الإمبراطور «إياسو» اللعين وبين قنصل تركيا، والتي فحواها أن إياسو على استعداد تام لتلبية طلبات تركيا، تلك الطلبات الخاصة بمساعدتها في الحرب ضد الإنجليز وحلفائهم من الغربيين، لست أدري كيف سولت نفس هذا المأفون له أن يطعن الحلفاء الغربيين هذه الطعنة النجلاء، في هذا الوقت العصيب بالذات؟ إن الأمر واضح جليّ فإياسو يتعاطف مع تركيا دولة الخلافة الإسلامية بدافع ديني لا يخفى على أحد، وهل نسيت أنه كتب على علم الدولة عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله»؟ وهل نسيت أنه قدم ذلك العلم هدية لقنصل تركيا في أديس أبابا؟؟ إنه يتصور أن تركيا تخوض حربًا مقدسة ضد الصليبية في أوربا بصرف النظر عن الاعتبارات الأخرى، ونسي هذا الإمبراطور الأبله أن تركيا في الماضي قد اكتسحت شرق أوربا، ونشرت الإسلام في ربوعها، وأذاقت أهلها الهوان، وأنها ظلت لعدة قرون تقف صامدة قوية، تحول دون الزحف المسيحي إلى الشرق، بل إن سلطان تركيا قد امتد حتى شمل مساحات شاسعة من إفريقيا وأوربا، لقد آن الأوان لكي

نتخلص من هذه الإمبراطورية التركية العنيدة العتيدة، بعد أن أصبحت على حد تعبيرنا «الرجل المريض»، وبعد أن انحرف سلاطينها، واستبدوا بشعوبهم، والآن، يأتي إياسو ليساعد هذا العدو اللدود! إن في ذلك خيانة ابشع من خيانته للديانة المسيحية نفسها بل إن هذين التصرفين الأحمقين ليسا سوى وجهي عملة واحدة، ولقد أسعدني أنك بادرت وأطلعت أصدقاءنا من الإنجليز والفرنسيين على هذه الوثائق الخطيرة، ولقد وصلتني أنباء أكيدة عن ذعرهم لهذه الوثائق، واهتمامهم الزائد بها. . لقد أصبح مؤكدًا لدى الجميع أن «إياسو» نكبة من النكبات العظيمة التي دهمت تاريخ الحبشة، وأن هذا الإمبراطور الأرعن يجب الخلاص منه في أقرب فرصة ممكنة ... ومن ناحية أخرى فقد أسعدني هذا التصرف الأحمق منه لعدة أسباب: أولها: أنه قد وضع أصدقاءنا الغربيين في موقف لا يحتمل السكوت، بل لابد أن يتحركوا معنا بكل قوة وإخلاص، وأن يواجهوا هذا الخطر الداهم، قبل أن يبعث إياسو إلى تركيا بالمال والرجال والمؤن واللحوم وغيرها، وثانيها: أنه قد شغل نفسه بجبهة أخرى يستنفد فيها طاقته، إذ لا شك أن اشتراك إياسو في هذه الحرب سوف يتيح لنا فرصة أكبر لتدبر أمره، وإحكام الضربة ضده.

وثالثها: أنه سوف يمتص فائض دخل الأمة في حرب بعيدة عنه، وهذا يعطينا فرصة لإثارة الناس وخاصة العناصر المسيحية ضده، ومن ثم لابد أن نبين لهم أن هذه الحرب واشتراكهم فيها، سوف تعود عليهم بالفقر والدمار، بالإضافة إلى أن تحركه للحرب في صف تركيا سوف يبطل دعواه في حب السلام والرفاهية والحياة بين القوى المتصارعة في الداخل أو الخارج..

سيدي المطران الأنبا ميتاوس..

إن صحت الأنباء القائلة بأن إياسو سوف يسافر إلى الجنوب لتجميع جيش ضخم للحرب، فإن هذه ستكون فرصتنا الأولى

والأخيرة، سيكون هو في الجنوب، وسيكون أبوه في مقاطعة «وللو» ... وستكون أديس أبابا بلا إمبراطور أو خطة للدفاع، وسينقض عليها رجالنا في حراسة الله، ومع الجموع المؤلفة من رجال الكنيسة، حيث تدق الأجراس في الكنائس .. أجراس النصر .. وختامًا .. ولنا عودة ...؟؟

طوى ميتاوس الخطاب، وتحسس لحيته شارد النظرات، مكدود الفكر، يستعيد بذاكراته ما كتبه الرأس «تفري»، لشد ما يبهره تفكير تفري ودهاؤه، إن هذا الرجل ذا القلب القاس، هو رجل المعركة الحاسمة بلا منازع، إن رجل الحكم لا يصح أن يكون ملاكًا وإلا تمرد السفلة، واستعلت إرادة المفكرين، وساد البله والتسامح، ونحن أحوج ما نكون إلى القسوة والعنف كي نقضي على ذلك الانتشار الإسلامي البغيض الذي أشقانا طوال القرون الماضية .. أنا لا أكاد أصدق التاريخ، كيف جاء يوم كانت فيه بالحبشة سبع مقاطعات إسلامية صرفة؟ وكيف يبلغ عدد المسلمين في الحبشة ثلاثة أرباع السكان؟؟ إنها لكارثة كبرى، بل إنها لداء وبيل لا يشفيه التسامح والسلام والإخاء، لا شيء غير القوة .. القوة وحدها هي القادرة على ردع الفكر الإسلامي، وتشتيت التجمع المحمدي الخطر، ووقف غزو اللغة العربية وحضارتها ... إن إياسو لعنة هبطت علينا من السماء .. ولا نجاة إلا بالرأس «تفري» .. إنه السيف الصارم الذي لا يرحم، والقلب الحديدي الذي لا يرق، والعيون المتحجرة التي لا تدمع ...

وكفّ ميتاوس عن التفكير حينما رآها تدخل عليه، هتف مندهشًا: «الإمبراطورة . . .»

قالت وقد كشفت خمارها: «أتيت إليك يا أبتاه خائبة تعسة . . .»

- «لكن الإمبراطور قد يأتي في أية لحظة ..»
- «لا تخف ...»
قال مضطربًا: «خبريني .. هل عرف الحقيقة؟؟»
- أجل .. كل شيء ..»
- «كيف؟؟ لقد أقسمت على الإنجيل أ تخفي سرنا ..»
- «أنت يا أبتاه لا تفكر إلا في نفسك وأغراضك ..»
ضرب كفًا بكف، وهتف: «لقد ضعنا .. إن اعترافك أوقعنا في ورطة خطيرة لا نجاة منها ولا مهرب كيف تتصرفين هذا التصرف؟؟ لقد ضعنا ..»
قالت في غيظ: «أنا التي ضعت .. لقد فقدت كل شيء .. لقد طلقني الإمبراطور .. طلقني يا أبتاه وأنا أحبه ..»
هز الأنبا رأسه، بينما انفجرت الإمبراطورة باكية، وقال ميتاوس: «ألم يخبرك ماذا سيفعل بنا؟؟»
صرخت: «قلت لك لقد طلقني .. ألا تهزك هذه الكلمة؟؟ إنها تجعل جسدي كله ينتفض .. إنها أفظع من الموت .. طردني من قصره .. لن أراه بعد اليوم .. إن إياسو حبيبي لم يعد لي .. ألا تهزك هذه الفجيعة؟؟ إني أشعر أن العالم كله قد استحال إلى سواد .. أيامي لا معنى لها .. أنا لا شيء أصبحت جيفة .. كومة من أسى وعذاب وضياع .. لقد طلقني يا أبتاه ..»
ثم ألقت برأسها على كتف المطران منتحبة، تبلل ثيابه بدموعها المنهمرة ..
- «لا عليك يا ابنتي .. إن السماء تفتح لك أوسع أبوابها .. والعذراء تبتسم لك في عزاء .. إنه تعس خاطئ لا يعرف الحق .. لقد نجوت إذ كيف كنت تعاشرين رجلًا مسلمًا لا يؤمن بيسوع ..»
قالت وكأنها لم تسمع شيئًا مما قال: «لم لا تصلي من أجلي يا أبتاه؟! فلتدع العذراء أن تعيدني إليه إلى إياسو حبيبي .. إنني أحبه

برغم كفره ..»

قال ميتاوس في جفاف : « إن العذراء ترفض أن تعود الطاهرات التائبات إلى المدنسين الخطاة ..»

قالت والدموع تترقرق في عينيها : « إن العذراء تقسو عليّ .. لا يرضيها أن يتحطم قلبي .. فلترتل الضراعة إليها فلعلها ترق لي .. إن يسوع ابنها كان يحيي الموتى، ويشفي المرضى، ويصفح عن الخاطئين، ويحمل آمال البشر وخطاياهم، ويفديهم بحياته.. فلتعدني العذراء إلى إياسو .. »

قال متوتر الأعصاب : « أنت لا تحبين إياسو ..»

– « بل أحبه .. ليس في قلبي غيره »

– « اصمتي يا عاشقة المجد .. أنت تحبين اللقب الضخم، والقصر الكبير، والحراس والحجاب، وهيلمان الإمبراطور .. والذهب والجواهر .. وكل هذه المظاهر إلى فناء ..»

– « بل أريده وحده بلا مجد ولا قصور ولا سلطان، لو كان متسولاً يحمل غرارة على ظهره، ويستجدي الموسرين لما أخذت سواه »؟؟

قال ميتاوس وأنفاسه تتلاحق : «لن تعودي إليه .. إنه لا يعرف الصفح ولا الرحمة ..»

– « لأني خنته ..»

– «ولأن إرادة الله ترفض أن تعودي إليه .. أي بنيتي يجب أن تعلمي أنك قد أديت واجبك المقدس نحو الله والوطن، وأنك قد ضحيت بنفسك في هذا السبيل، وأنت لا تقلين منزلة عند الله عن القديسين والشهداء ... أي بنيتي ... إنها إرادة الله الأخيرة . . يجب أن تفكري في الذهاب إلى الدير كي تترهبي .. إنك بذلك تبدأين الخطوة الأخيرة والحاسمة نحو ملكوت السماوات ..»

أطالت النظر إلى المطران، وهتفت في وهن : « اغفر لي يا أبتاه »

– « ماذا أغفر لك؟؟ »

- «لتغفر لي خيانتي .. فقد خدعت أعظم رجل في الحبشة .. خنت إياسو حبيبي .. فهل ترضى عني السماء؟؟»

- «اذهبي عني .. لقد التاث عقلك ، واضطربت أعصابك .. اذهبي ودعيني أفكر في حل المشكل الذي تسببت فيه بيننا وبين الإمبراطور ..»

خرجت الإمبراطورة تجر حطامها ، أنغام حزينة تهوم في رأسها المتعب ، خيالات غامضة تمر بذاكراتها ، وفارسها الأسمر قد تركها وولى فوق جواد أشقر ، وخلفه عروس من حور العين ، تترنم بأنغام علوية إياسو .. إياسو .. طر بنا نحو السحاب، دارت الأرض بالإمبراطورة ، واختلطت الصور في ذهنها المشوش ، ولم تعد ترى أو تعي شيئًا ، فارتمت على عتبة الباب مغمى عليها ، وهي تردد بصوت واهن حالم « إياسو .. إياسو ..»



الفصل ١٠

لقد ساد القصر الإمبراطوري كثير من التوجس والاضطراب منذ أعلن إياسو إسلامه ، فإن شو أرقاش التي كانت تتردد بين « وللو » وأديس أبابا ، لم ترتح كثيرًا لهذا التصرف . وأبوه « ميكائي » سر لذلك أيما سرور ، وإن شعر بصعوبة الأمر . ولعله كان يرى أن « إياسو » قد تعجل بعض الشيء ، إذ كان يجب أن ينتظر حتى تتوطد سلطاته ، ويستقر أمره ، والأميرة « زوديتو » خالة إياسو ، وابنة منليك رفضت هذا التصرف رفضًا قاطعًا ، ولم يزد الأمر عن مجرد المعارضة الشكلية . فبقيت علاقتها بإياسو طيبة لم يشبها كدر حقيقي ، أو عنف في المؤاخذة ، وزوجها « غوغسا » كان يرى أن في تصرف إياسو إهانة للكنيسة ، وضربة قاضمة للمجتمع المسيحي في الحبشة ، وأن ذلك سوف يجلب عليه المتاعب . واصطخب الحوار والنقاش الحاد في أروقة القصر بين أفراد الأسرة ، كما احتدم بين الخدم والحرس ، فترك ذلك كله أثرًا بالغًا في الصفاء الأسري ، والاستقرار النفسي . وزاد الطين بلة ذلك التصرف الغريب الذي أقدمت عليه زوجة الإمبراطور ، عندما تعاونت مع ميتاوس ، وكشفت له عن أسرار زوجها ، ونقلت إليه بعض المستندات والأوراق الخطيرة ، مما نتج عنه طلاقها ، فكان هذا الحادث مثل إسلام إياسو . فقد وجد فيه المتعصبون والحاقدون وأعداء الإمبراطور ، فرصة ذهبية كي يملأوا منتديات « أديس أبابا » ، وأنحاء الحبشة بالترهات والأكاذيب التي تناولت شخصية الإمبراطور ، وأثارت الشبهات حول سلوكه وسلوك زوجته ، ولا شك أن ذلك كله أثر في سمعة الأسرة الحاكمة ، وألقى ظلالاً من الشك وعدم

الثقة فيها ، فقد حرصت الكنيسة وعملاؤها ، كما حرصت الدوائر الأجنبية ، والهيئات التبشيرية على بلبلة الأفكار باختلاق الأكاذيب والمزاعم التي لا تقوم على أساس حقيقي . وأمام هذه العاصفة القاسية من الحقد والتشنيع المرير بقي إياسو قلقًا حائرًا يفكر . ماذا يفعل؟؟ وكيف يواجه هذا التيار الغاضب من الافتراء والتحدي؟ أيضرب الكنيسة ضربة لا رحمة فيها ولا هوادة؟؟ أيطارد المغرضين ، ويمزق شملهم ويلقنهم درسًا في الأدب والإخلاص؟؟ أيطرد بعثات التبشير ، ويناصل الدول المعادية؟؟ لا .. لن يفعل ذلك ، لن تستطيع أية قوة في الوجود أن تحيد به عن الخط الذي رسمه لنفسه . لن يخرج عن سياسة التسامح والإخاء ، ولسوف يصفح عن خطايا الكنيسة ومؤامراتها الحاقدة ، لن يفتح الطريق لفتنة دامية قد تشعل النار في أمن وطنه . وتهدد كيانه الآمن . ولسوف يخرج إلى الناس ليوضح لهم ، بقدر ما تسمح به الظروف ، الحقائق ، سيقول لهم إن أعداء الحرية والتسامح والإخاء يأبون إلا أن يجروه إلى طريق الدماء والعنف ، ولكنه لن يمضي في هذا الطريق برغم الإثارات والتحريضات ، لأن تسامحه أقوى من حقدهم ، ولأن إيمانه بمبادئه لا تزعزعه الأعاصير والتدابير الشيطانية ، إنه قادر على أن يضرب بشدة ، وقادر على أن يخرس الألسنة المغرضة ، والإشاعات الكاذبة ، ولكن سلوكه ومنهجه سوف يحبطان مكائد الكائدين .

والحقيقة أن إياسو كان يكبح جماح نفسه ، ويمنعها من الزلل والاندفاع ، وجاء إليه أبوه ميكائيل (محمد على) ذات يوم ، وقال له : « أعرف يا إياسو أنك تعاني من أزمة نفسية عاتية » .

– « هذا حق يا أبتي .. لكن تحرري من إسار الوهم والخوف ، وإعلان إسلامي على الملأ قد أراحني كثيرًا .. إن تعبيرك عما يجيش في صدرك دون خوف ، وفي ظروف حالكة كهذه شيئ عظيم .. إنه

ميلاد جديد .. غير أن ما أقدمت عليه زوجتي من حماقات قد أثارني إلى أبعد الحدود .. قد أفقدني الثقة في كثير من الناس ..»

– « أجل يا إياسو .. كانت لعبة دنيئة ماكرة ..»

– « إن بعض أسرار الدولة العليا قد وقعت في يد ميتاوس ، وأنت تعلم أنه على صلة وطيدة ببعض قناصل الدول .. تصور .. لم أجد محاضر الاجتماعات الخاصة بالتعاون مع تركيا، إنه لأمر يدعو للأسى والضيق البالغ .. لسوف أتجاهل ميتاوس . ولن أفاتحه في شيء . .»

قال ميكائيل : « إن شعبنا طيب . ويذكر دائمًا الأيادي البيض التي تقدَم إليه .. وكثير من الأكاذيب التي يروج لها الأعداء تسقط دبر أذنيه .. لكنه لا يصح أن يعاني من فراغ .. تمامًا مثل قصر الإمبراطور هو الآخر لا يصح أن يعاني من فراغ ..»

قال إياسو : « ماذا تعني يا أبي؟؟ »

– « أعني ، أن تتزوج .. يجب أن تملأ الفراغ الذي تركته زوجتك السابقة – وبالتالي سيجد الشعب عوضًا ، سيجد قصة جديدة قد تحل محل الترهات القديمة التي تروج لها الكنيسة والأعداء ، الفراغ ، إن لم تملأه بالعناصر الطيبة والفكر الحي ، ملأه الحاقدون بالافتراءات والأكاذيب .. تدرك ما أرمي إليه؟؟ »

عاد إياسو يقول : « إنني انتظر رسالة من أمير هرر الأمير محمد عبد الله .. لقد رأيت ابنته .. لشد ما أعجبت بدينها وسماحتها وذكائها وجمالها أيضًا . لكأنما ولدت لتكون زوجتي ..»

ضحك أبوه قائلًا : « إنها إمبراطورة قلبًا وقالبًا .. ثم إنها لن تخرج من القصر لتلتمس البركات من مصدر آخر . ولن تسرق الوثائق .. ولن تكون موزّعة الولاء . هذا ما أتمناه .. إن سمعة أبيها وأسرتها فوق الشك والريب ..»

وشرح إياسو لأبيه كل ما يحيط بالزواج من ملابسات ، وأكد له أن

هذا الزواج قد يتم خلال أيام قليلة ، ولم تكد تمضي أيام قليلة فعلًا حتى صرح مصدر إمبراطوري أول تصريح رسمي عن زواج إياسو من ابنة أمير هرر ؛ فسرى النبأ في كل مكان ، وغطى على ما عداه من الأنباء والترهات والشائعات ..

وتمتم الأب «ميتاوس» لمن حوله قائلًا : «إن عدد المسلمين في القصر يزيد واحدًا من آن لآخر . لم يبق إلا أن يجلب إياسو لنفسه أمًّا جديدة تكون مسلمة .. إن هذا الخبيث يخطط لبعيد ، لكننا سنقف بالمرصاد لكل مخططاته .. إن هذا الإمبراطور منذ جاء يشغل الأمة بأفكاره وأفعاله ، لا يكاد يمر شهر دون أن يكون هناك جديد» .

وجلس ميتاوس يجتر أساه ، ويصر على أسنانه في غيظ ويهمهم : «لماذا حدث كل ذلك في عهدي؟؟ لسوف يكون ذلك سبّةً في تاريخي الشخصي وتاريخ الحبشة ما لم أفعل شيئًا ، أيقال غدًا إنه في أيام ميتاوس ، أعلن الإمبراطور المسيحي إسلامه ، ووقف المد المسيحي ، وزاد عدد المعتنقين للإسلام ، وتوقفت الحملات التاديبية ضد المسلمين ، وقويت شوكة اللغة العربية ، وزاد عدد المساجد ، وقيدت حركات الهيئات التبشيرية؟؟ يا للمهزلة» ..

ودخل أحد الخدم وقال : «الإمبراطورة قادمة ..»

صاح في حدة : «ما الذي أتى بها الآن؟؟ أتراها جاءت لتذرف أمامي الدموع ، وتقول إن إياسو سيتزوج ابنة أمير هرر ، وأنها تحملني تبعة ما حدث ..»

وجاءه صوتها من خلف الخادم : «معذرة يا أبتاه ، ما جئت لأذرف الدموع ، ولا لأعترض على زواج إياسو ، فأنا أستحق ما حدث .. إن المسؤولية كاملة تقع على عاتقي وحدي إن تحريضك لم يكن كافيًا لكي أسقط ..»

هتف ميتاوس : «تسقطين؟؟»

— «أجل يا أبتاه . إنها سقطة كبرى .. لقد عرفت كل شيء .. قرأت

الإنجيل وشروحه القديمة، فصدمتني حقيقة مرة.. إنكم أبعد ما تكونون عنه، إن لكم تفاسيركم وشروحكم الخاصة.. لقد عرفت في النهاية أن طريق الله مفتوح أمام الجميع دون وساطة أحد.. ليس من الضروري أن أبحث عمن يأخذ بيدي إلى الله. إن كتاب الله هو المرشد والدليل، وإن الوسطاء كثيرًا ما يحرفون الكلم عن مواضعه، وإن كلماتهم المكتوبة تلتزم الحذر، لكن كلماتهم المنطوقة تنطلق دون تحفظ.. وهم يخاطبون الناس بلغات مختلفة، أنا مثلًا أستسلم لأوامرك عندما أعلم أنها أوامر السيدة العذراء.. في إمكانك أن تخدعني، لكن من المستحيل ان تخدع إياسو.. لأن روحه حرة، وفكره منطلق، ويحسن التعبير عن ذاته.. لا يرهب القلق ولا يتبرم بالحيرة.. إن نار القلق المقدسة لا تحرقه، ولكنها تدفئ قلبه ولهذا انتصر.. جئت لأقول لك إنني أحترم إياسو، وما زلت أحبه.. مع أني باقية على ديني، ولن أعتنق الإسلام».

وصاح الأب ميتاوس في حدة: «أجئت هنا لتقولي هذا الكلام؟؟ كان أحرى به أن يسمعه إياسو لعل قلبه يرق لك، فيعيدك إلى قصره».

قالت الإمبراطورة السابقة: «لا يهم.. إن إياسو يعيش في قلبي وروحي.. إنه معي في كل لحظة من الليل أو النهار، وإن تباعدت أجسادنا، أنا لا يهمني الإقامة في قصره ما دام هو يجلس على عرش قلبي.. إنني مؤمنة بأن أية قوة في الوجود غير قادرة على انتزاعه مني.. إنني أملك كل شيء لأن روحي أصبحت عامرة بالإيمان الحقيقي والحب الأصيل..لقد حاول المسكين ردحًا طويلًا من الزمن أن ينمي قلبي بهذه الحقائق، وأن يقنعني بأن الزواج ليس جسدًا فحسب، وأنه ليس بالحب وحده يحيى الإنسان ولكنني كنت غافلة..

ليكن .. أنا لا يهمني ما حدث ما دمت قد وصلت إلى الشاطئ الآمن .. إلى الإيمان الحقيقي بالله .. إن إياسو الحبيب سيظل أعظم رجل في تاريخ الحبشة حتى ولو أزلتموه عن عرشه غدًا .. لأن عرشه من أحجار وجواهر وحرير ..»

هبَّ الأنبا ميتاوس واقفًا وقال : «ماذا تريدين؟؟»

- «لقد عرفت يا أبتاه ما أريد .. ولسوف أنصرف قبل أن تطردني ..»

- «على ألا تعودي إلى هنا مرة أخرى ..»

- «لا يهم .. لأن رحاب الله أوسع من رحابك ، وهو لا يطرد أحدًا من ملكه .. حتى العصاة والخطاة لا يغلق في وجوههم بابه ..»

صرخ ميتاوس : «هيا أخرجوها من هنا ، لا أريد أن أرى وجهها بعد الآن .. مطرودة من رحمة الله هي ..»

- «رحمة الله من حق الله وحده .. الله يرفض أن يكون له شركاء في ملكه ..»

وحدث هرج ومرج ، وتجمع كل من بالمبنى من القساوسة والرهبان والراهبات ، وأخذوا يرقبون المشهد المثير فاغري الأفواه ، خافقي القلوب ، وهم يتساءلون : ماذا جرى؟؟ لماذا كثر التمرد ، وعصى الناس رجال الدين المقدسين ، حتى الأنبا ميتاوس تصرخ في وجهه امرأة ، فيزايله وقاره ، ويفارقه حلمه المعهود؟؟

وشقت المرأة طريقها وسط الحشد الكبير مرفوعة الرأس ، وقد علقت قطرات دمع بأهدابها الطويلة ، ثم قصدت عربتها ، وانطلقت بعد أن أثارت العجلات المسرعة زوبعة من التراب .



وأقيمت الزينات ودقت الطبول، وارتفعت الأعلام المكتوب عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله». وتبادل الشعب التهاني بمناسبة زواج الإمبراطور من ابنة أمير هرر.

وقد كان فرح المسلمين خاصة غامرًا فياضًا. كانوا يشعرون أكثر من غيرهم أن الإمبراطور إمبراطورهم، وأنه إحساس لا يمكن مقاومته. وخاصة في ذلك البلد الذي قاسى فيه المسلمون الكثير من العبث والمظالم والانتقام الدموي الرهيب على فترات متقاربة من التاريخ. ولم تكن خطب «إياسو»، ولا دعواته إلى الأخوة والتسامح والحرية العقائدية، بقادرة على أن تصفي تمامًا ما يضطرم في النفوس من مشاعر دينية، ويكفي أنه وقف حائلًا دون أن تتحول هذه المشاعر الدينية إلى انتقام وقلق واضطرابات.. وهي خطوة انتقالية لكنها هامة ومؤثرة، لأن التصفية النهائية للعقد الدينية، المرتبطة بالوقائع الدامية، والاضطهادات المريرة تحتاج إلى مزيد من الوقت والتثقيف والتربية.. فهي عملية تحول نفسي بطيء.

قال إياسو لزوجته الجديدة: «ما هي أعظم أمنية لأحققها لك؟؟»

قال في خفر وحياء: «أن أراك مؤمنًا راضيًا»

ابتسم في سعادة غامرة وقال: «إنه شيء يتعلق بي أكثر مما يتعلق بك. أريد أن أبذل شيئًا من أجلك فإذا بك تتمنين شيئًا لي ..»

– «أنا أنت، وأنت أنا ..»

– «امرأة في عز شبابها تتحدث كالمتصوفين ..»

– «لا أفكر في ذلك يا إياسو الحبيب.. إنني فقط أترجم بصدق عما يشعر به قلبي، ويؤمن به عقلي.. إن زوجة الإمبراطور يا إياسو

الحبيب يجب أن تكون أكثر من زوجة . وأكثر من امرأة وأكثر من حبيبة .. إنها ذات رسالة خطيرة ...»

قال مداعبًا : « هل حفظت ذلك عن أبيك؟ »

– «بل تلقيته عن أمي .. ثم رأيته يحدث أمام عيني في قصر أبي في هرر .. آه .. طبعًا أنت تعلم ما كانت تقاسيه هرر من موجات الغزو الصليبي الأحمر .. لكأنها كانت دائمًا ميدان قتال ...»

ووجدها إياسو ما زالت تلتزم بالجدية في حديثها فقال : «إن سعادتي بك فوق التصور .. أنت بنت الأحداث العاصفة ، والإيمان الذي لا يتزعزع .. إليّ أيتها الحبيبة .. لكم أتمنى أن أضمك إلى صدري .. إن شعورًا فياضًا هادرًا يسري في كياني كله .. هذا يوم المنى ...»

أدارت وجهها في حياء ، وتوردت وجنتاها خجلاً .. وابتسمت ..



الفصل ١١

إياسو لا ينكر إن الحرب ضد تركيا
والشرق حرب اقتصادية تؤججها المطامع
الاستعمارية، لكنها في الوقت نفسه تخفي وراءها أهدافًا صليبية ماكرة، تبغي الكيد للأمم الإسلامية، وتحطيم وحدتها، والقضاء على قوتها المتوثبة على حقب التاريخ. وإياسو يرى أن مساعدته للإنجليز والفرنسيين تحمل في طياتها - من الوجهة السياسية - أخطارًا مؤكدة. فإذا ما تعاون معهم فلسوف يزداد سلطانهم ونفوذهم في الحبشة، وسيرتبطون بعجلتها إلى الأبد، وفي ذلك ما فيه من ضياع حرية البلاد، وتهديد مصيرها، والمساس بقضية العقيدة فيها: إن القضاء على الخلافة الإسلامية في نظره برغم الانحراف الذي دبَّ في أوصالها، والطغيان الذي مارسه بعض سلاطينها، سوف يدمر حاجزًا ضخمًا يقف حائلًا أمام الأهداف الصليبية والاستعمارية في العالم، وسينهار الرمز لذي تحتشد وراءه العواطف الإسلامية على الرغم من حركات التمرد القومية ضد عسف تركيا ... وهكذا تبلورت الفكرة في رأس إياسو.. أن يحمي بلاده من التدخل الأجنبي بعدم التعاون مع الحلفاء، وأن يحمي العقيدة لتي يؤمن بها بالوقوف في وجه التخطيط الصليبي، والأهداف الاستعمارية.. ولو كان إياسو يبغي مجدًا شخصيًا رخيصًا، وتثبيتًا مستعارًا لدعائم عرشه، لبقي مسيحيًا في الظاهر، ولنافق الكنيسة، ولاستجلب رضى الحلفاء.. لكنه لم يكن كذلك، لن يفعل سوى ما يؤمن به، ولن يستجيب إلا لمنطق العقيدة، ورغبات الشعب . . . أجل رغبات الشعب.. فقد انهالت عليه المكاتبات من المسلمين وعلمائهم وذوي الرأس فيهم في شتى أنحاء

الحبشة ، وهم يشكلون أغلبية تبلغ خمسة وسبعين في المائة ، كانت هذه المكاتبات تطالب بالتعاون مع تركيا دولة الخلافة الإسلامية ، والتي تتعرض للانتقام الاستعماري والصليبي ، إنهم يرون بأعينهم كيف ابتلع الإنجليز مصر ، وكيف استولت فرنسا على المغرب العربي ، وكيف يتوثب الإنجليز والفرنسيون لابتلاع الشام وغيرها ، ومن ثم طالبوا بعدم التحالف مع الحلفاء وبموازرة تركيا بكل قوة . وفعلاً عزم إياسو على الذهاب نحو الجنوب لتجميع جيش كبير يرسل به لموازرة تركيا ، وبينما هو يعد العدة لذلك ، قدم أبوه ...

قال ميكائيل : « أي ولدي .. إن اتجاهك شريف لا شك فيه ، لكنني أخاف الغدر »

– « ماذا تعني؟ »

– « إن انهماكك في الاستعداد الحربي ، قد يعطي فرصة للطامعين .. إن رؤوس بعض المقاطعات لا يكنون لك إلا كل عداء ، والكنيسة سوف تفقد صوابها ، ولهذا كنت أفضل الحياد ، وعدم الاشتراك الفعلي في الحرب ..»

قال إياسو : «كيف يمكن أن أقف محايدًا بين حق وباطل يتصارعان بالسيوف ، ويراق بينهما الدم؟؟ »

– « يبدو لي يا إياسو أن آمالك أكبر من قدراتك ..»

– « إن شعبنا يستطيع أن يصنع المستحيل ، أو يحقق الكثير على أسوأ تقدير .. إنني حينما أحارب إلى جوار تركيا ، إنما أدافع بذلك عن الحبشة ..»

– « هذا تصور طيب ، لكنك إذا ما هُزمت تركيا ، وهو الأرجح فقد فقدت الحبشة ، قد يأتي إليك الضرر من حيث تتوقع أن تأتي الفائدة ..»

وظل إياسو يفكر فيما قاله أبوه لبضع ليال ، يفكر في احتمال هزيمة تركيا ، وما قد يجره عليه من مشاكل سياسية واجتماعية وعنصرية ، ويفكر فيما يصر عليه ذوو الرأي من أمته ، وما تعتنقه

الكنيسة من ضرورة مناصرة الحلفاء، ويفكر في المحادثات التي كانت تجري بينه وبين قنصل تركيا، وقناصل فرنسا وانجلترا وإيطاليا. إن بعد النظر السياسي يكاد يوقفه عن التحرك لمساعدة تركيا، وحرصه على عدم التفريط في ثروة وطنه، وأفراد شعبه، وأحقاد الكنيسة، كل ذلك يجعله يفكر ألف مرة قبل أن يقدم على هذه الخطوة الحاسمة. لكنه تساءل: هل كل أمور الدنيا والدين ينظر إليها بعين الكسب والخسارة، والشر الذي قد يقع، أو الخير الذي قد يأتي؟؟ إنه ينظر إلى الأمر من زاوية أخرى.. إنه يرى معركة بين الحق والباطل، بين الصليبية المتخفية، والإسلام المفترى عليه، ولا ينفي هذا التصور وقوف ألمانيا إلى جانب تركيا، فالمانيا لا تختلف مطامعها عن مطامع انجلترا، لكنه عند النصر فستكون تركيا منتصرة وألمانيا منتصرة. ومن ثم فستكون الفدية متوفرة، ولن تخسر تركيا المسلمة المنتصرة، مثلما تخسر تركيا المسلمة المنهزمة. لشد ما يكره إياسو الحياد في مثل هذه الأمور، إن عليه أن يختار بين الحق والباطل: بين منطق الكسب والخسارة، ومنطق المثل العليا.. لهذا قرر «إياسو» أن يمضي في الطريق دون أن يتراجع.. لسوف يذهب إلى الجنوب ليعد العدة لمساعدة تركيا، لسوف يحسم الأمور كما يحلو له دائمًا، بطريقة واضحة لا غموض فيها، فغالبية الشعب تؤيده، وعاطفته الدينية تدفعه إلى ذلك، وخوفه من الحلفاء إذا ما انتصروا يحرضه على الوقوف ضدهم ..»

قال إياسو لزوجته: «إنها حرب مصيرية يا عزيزتي ..»

– «أعرف ذلك ..»

– «وأبوك في هرر يرى فيها تجربة طيعة لتدريب المسلمين واستثارة حميتهم من جديد، حتى يمكنهم الحفاظ على عقيدتهم ضد أي غدر مجهول ..»

– «إنه يؤمن بذلك تمامًا ..»

– « وأنت؟ أليس لك رأي خاص في هذه المشكلة ..»

– « أنا لا أعرف كثيرًا عن هذه الأمور ، ولكني أؤمن أن الحرب فريضة في حالة الدفاع عن النفس والشرف والعقيدة ..»

قال إياسو في فرح : « إذن لم التواضع؟ أنت تعرفين خير ما يجب أن يُعرف »

– « أتحارب إذن دفاعًا عن ذلك كله ..؟ »

– « أجل يا عزيزتي ..»

– « فأنت على صواب ..

قال إياسو شاردًا : «لكن ذلك سيكلفنا الكثير من التضحيات ، وسيجلب علينا مزيدًا من الأخطار ..»

– «لتزن الأمور بدقة ..»

– « إنني أزن الأمور بميزان قد لا يعجب البعض ..»

ثم صمت برهة ، وعاد يقول : «إن أغلب حكام المقاطعات قد أيدوني في مناصرة تركيا ..»

قالت زوجته : « وزوج مالفن؟؟ »

– « تفري؟ »

– « أجل .. إنه حصيف ، ورأيه له وزنه ..»

– « الغريب في الأمر أنه يشتعل حماسًا لرأيي ، لقد أبدى استعداده لإرسال بعض المتطوعين المسلمين في مقاطعته .. أحيانًا يبدو «تفري» واقعيًا مغرقًا في الواقعية .. لقد قال أنه قد تردد في مثل هذا الأمر نظرًا لما علمه من تضايق قناصل الحلفاء في الحبشة ، لكنه أكد لي أن رغبة غالبية الشعب فوق كل اعتبار ، لقد قابل تفري الأمر بهدوء ، وكذلك فعل غيره من حكام بعض المقاطعات المسيحيين ، وأما البعض فقد اعترض صراحة على التعاون مع تركيا ، زاعمًا أن بعض الدول الإسلامية والعربية التي تحكمها تركيا قد انحازت للحلفاء ...الكنيسة تبدو وكأنها على الحياد ، لكني على يقين أنها قد غضبت غضبًا شديدًا من جراء اتجاهي الجديد ، ومن ثم فقد رضخت

للأمر . وميتاوس أخبرني أنه ملزم بالانصياع لرأي الأمة، وإرادة الإمبراطور المحبوب ..»

وسادت فترة صمت قال إياسو بعدها : «وأنت ألن تأتي معي إلى الجنوب!؟»

قالت زوجته في دهشة : «أتمزح يا إياسو؟؟»

– «لا يا عزيزتي ..»

قالت وهي تهم بالانصراف : «هل سيأخذ الضباط والجنود والقواد زوجاتهم معهم؟؟»

– «لا ..»

– «فلماذا إذن تتصرف على خلافهم؟؟»

قال باسمًا : «لأني الإمبراطور»

وأخذ جسده يهتز مع ضحكاته . ثم عاد يقول : «إن الفارق كبير .. كبير جدًا ..»

– «ماذا تعني؟؟»

– «لقد طرحت السؤال نفسه على زوجتي السابقة، لا .. لم أطرحه، بل هي التي اقترحت وأصرت على أن ترافقني أينما ذهبت، لم تكن تفكر في شيء سوى تلازمنا معًا، كان حبًا غبيًا أنانيًا ..»

ساد وجهها شحوب ظاهر، وسحبت يدها من يده، وقالت : «لسوف أخرج الآن ..»

– «لماذا؟؟»

– «سأعود عندما تنتهي من التفكير فيها»

– «أتغارين؟؟»

– «إنني أيها الحبيب إياسو أبغض هذه المقارنات حتى ولو كانت في صفي .. إنني أرفضها بكل شدة، إن ما يؤلم المرأة أحيانًا أن يكون لزوجها تجارب، وأن يعقد المقارنات ..»

قال إياسو وقد شده حديثها : «لقد كانت زوجتي»

– «ليكن ..»

– «هل تضايقت يا حبيبتي؟؟»

– «بماذا تريدني أن أجيب؟»

– بصفح جميل منك .. لن أعقد المقارنات مرة أخرى .. أعدك بذلك ..»

قالت وقد دمعت عيناها : «إنها تتغنى بقصائد الغزل فيك أينما ذهبت ، وتملأ الردهات والقصور بحبها لك .. ترى ماذا كان بينكما ، إنه شيء لا يطاق ..»

قال إياسو : «لم أتصور أن تفعلي ذلك .. إن عقلك وتفكيرك السليم يجعلني أظنك فوق الغيرة والغضب ..»

قالت وهي تبكي: «إنني امرأة يا إياسو .. لا تنسَ ذلك .. إن شبحها الآن يقف في مواجهتي متحديًا ساخرًا .. إنه يبدو وكأنه يقول لي أشياء كثيرة تملأ قلبي بالحزن ..»

قال إياسو وقد اقترب منها وأمسك بكفيها : «لسوف أقترب منك أكثر ، حتى لا يكون بيننا مكان لشبح دخيل ، إن اتحادنا معًا سوف يعتصر كل أذى ، ويتركه بلا حياة . أي حبيبتي إنني أعيش معك أحلى أيامي . وأجمل أمنياتي .. إن هناك معالم بارزة في حياتي لا تنسى .. اختياري إمبراطورًا .. واعتناقي الإسلام ، وزواجي منك ..»

وابتسمت في سعادة برغم القطرات الصغيرة المتعلقة بأهدافها . وتمتمت في شبه غيبوبة : «إياسو .. أيها الحبيب الغالي ..»

يا له من رجل!!!

إنها لتحب فيه تمرده وقلقه وعاطفته الجياشة ، وتحب فيه ثورته وهدوءه ، ورضاه وسخطه ، ومزاحه وجده ، إنه طاقة لا نهاية لها من الانفعال والحركة ، إنه وجود قائم بذاته يضج بالحياة ، ويترنم بالشعر ، ويعبر بالفلسفة ، ويستسلم ويتمرد ، ويعلن حبه إذا أحب ، ويبدي كراهيته إن كره .. إنه أنموذج فريد غريب .. ليس مثل كل الناس ..

- « إياسو .. أيها الحبيب الغالي .. لست أدري كيف أعيش بدونك إذا ما رحلت إلى الجنوب ، وخضت غمار الحرب . . .»

قال معاتبًا : « أنت التي ترفضين مرافقتي ..»

- « أنت تعلم السبب؟؟ »

- « ففيم العتاب إذن؟؟ وماذا أفعل؟؟ »

- « إنني أتكلم .. أعبر عن أشياء كثيرة تعتمل في قلبي . لا يمكنني التعبير عنها كلما أشتهي .. إنني أريد أن أبقى وأن آتي معك .. إنني .. ماذا أقول؟؟ لا أدري .. إياسو .. إن وجودي معك هو الوجود .. إنني معك يمتلئ قلبي باليقين والإيمان والحب .. إن قلبك الكبير ، وإنسانيتك العالية .. آية من آيات الله ..»

وعاوده الشرود من جديد . فتدلت يداه إلى جواره وقال : «كان يرعى الأغنام ، ويلبس جلبابًا رخيصًا ، ويأكل أبسط الطعام ، ويشرب من ثدي النعاج .. ويمضي دون حراس أو حجاب .. وليس له قصر منيف .. لكنه كان أعظم من مشى على الأرض ، وخير من تلقى كلمات الله .. هذا هو المثل الأعلى يا حبيبتي .. محرر العبيد .. ورسول السلام والحب والحرية .. والأخ الحنون لملايين البشر في كل مكان وزمان .. محمد »

تمتمت في خشوع : « ﷺ ..»

- « إنني أسمع المؤذن يدعو لصلاة الفجر .. فليبق هذا الصوت بأمر الله مجلجلاً في الآفاق أبد الآبدين .. هيا إلى الماء كي نستعد للصلاة .. ففي رحاب الله يا حبيبتي تسكن روحي ، وينزوي قلقي ، وتبدو الدنيا أمامي وكأنها شيء بسيط للغاية .. وتبدو قوى العالم المادية وكأنها هنا .. هيا يا حبيبتي لنرطب القلوب بذكر الله . . .»



الفصل ١٢

على الرغم من التكتم الشديد الذي يحيط «تفري» نفسه به، فإن الظواهر المختلفة تدل على أن شيئًا ما سيحدث. غياب تفري لفترات طويلة في الخارج، زيارته لأماكن عديدة في المقاطعة وغير المقاطعة، المقابلات السرية التي تتم في قصره أحيانًا وفي الأبرشية أحيانًا أخرى، السهر لساعات متأخرة من الليل، تدفق العتاد والأسلحة، وتدريبات الجنود المتصلة ...، لا يمكن أن تمر هذه الأمور دون أن تبعث في النفس شيئًا من التساؤل والشك.

قال قائل: لأي هدف تمضي هذه الإعدادات الهائلة. فكان الجواب، إن إمبراطورنا سوف يساند تركيا، وكانت هذه الإجابة مضحكة، إذ كيف يقدم الإنجليز أو الفرنسيون سلاحًا للحبشة التي ستساعد تركيا؟ إن معنى ذلك أن يرتد سلاح الحلفاء إلى صدورهم، والأدعى إلى السخرية أن يقال إن تفري يخدع الحلفاء، ويمنيهم بالعون في الوقت الذي يعتنق فيه رأي الإمبراطور إياسو وتوجيهاته، ولقد بلغ الاستعداد والنشاط ذروته في الفترة التي ذهب فيها إياسو للجنوب، وذهب أبوه إلى مقاطعة «وللو»، وكانت «مالفن» زوجة تفري وشقيقة إياسو برغم ما تعانيه من نكد وهم وكربات تشك في نوايا تفري وتصرفاته، إن قلبها يحدثها بأن شيئًا خطيرًا على وشك أن يحدث، وانتهزت فرصة وجود تفري ذات مرة وقالت له: «ماذا يدور هنا؟؟»

– «عن أي شيء تتساءلين؟»

– «الاستعداد للحرب ..»

توترت أعصابه، وارتجفت لحيته وقال: «هذا أمر يخصني

وحدي، إنني أنا الذي أحكم، وأنت يجب ألا تفكري إلا في أمور القصر، أنت زوجة .. هذا ما يجب أن تفكري فيه»

قالت مالفن في ضيق: «إن الحرب لا تخصك وحدك يا تفري. إنها مشكلة تهم الجميع، وتتعلق بمصيرنا كلنا ..»

قال في ضيق مصطنع: «إن أخاك هو الذي يجر علينا هذه المتاعب، إنه يزعم أنه داعية سلام في الوقت الذي يحاول فيه أن يشترك في حرب عنيفة في صف تركيا، البلد الذي يبعد عنا آلاف الأميال، ونحن إزاء ذلك مضطرون للاستعداد مخافة أن يدهم البلاد عدو غادر، إن هذا الجيش الذي أعده هو لحماية عرش أخيك، والذود عن حرمات البلاد ..»

- «لكنك يا تفري أيدت وجهة نظر إياسو»

- «كنت مضطرًا لذلك حتى لا يحدث ارتباك في سياستنا الدولية، ولكيلا يحدث شقاق بين صفوف الأمة ..»

وصمت برهة، ثم قال: «إن ما يجري هنا يعرفه أخوك، إننا نؤدي المهمة نفسها التي يقوم بها في الجنوب، لكي نشترك في حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل، إن إياسو متعصب للترك أشد التعصب، مع أنه يزعم أنه داعية حياد وتسامح وإخاء ..»

ورأى تفري الشك في عيني «مالفن»، وهو يعلم أنها لا تحبه، بل تحتقره، ويعلم أنها لا تصدقه، فهو يعبر في أغلب الأحيان تعبيرًا عكسيًا عما يعتمل في ذهنه وقلبه، إن أعماقه تبدو كعالم أسود غامض، لا تتضح فيه نوايا، ولا يبين فيه بصيص ضوء؛ ونظرت هي الأخرى إلى وجهه فلم تستطع أن تقرأ سطرً واحدًا من تعبيراته .. لكن الشك يؤرقها. فهي تثق في ظنها ثقة تبلغ حد اليقين .. إن تفري سوف يقدم على خيانة خسيسة ..

إنه حليف وفيّ للشيطان، يبيع أغلى القيم ليحقق أهدافه الدنيئة، ويدوس كل المقدسات في سبيل الوصول لمكانته، لكني أبحث عن دليل ..

ولم يغب عن فطنة «تفري» أن بذور الشك قد نبتت في قلب «مالفن»، إنه يعرفها جيدًا، ويعرف أنها سوف تتحرى الحقائق، وتبذل أقصى ما تستطيع لكي تعرف الحقيقة، إنها دائمًا تبحث عن إدانة جديدة لانحرافه وحقده وتآمره، ومن ثم فكر في أن يضربها في الصميم ..

عند تناول وجبة الإفطار في الصباح التالي، تذوق تفري شرائح اللحم المشوي، وبان الكدر على وجهه، وتمتم في حقد ظاهر: «هذا الطباخ الملعون يحرص دائمًا على إغاظتي فيزيد كمية الملح في الطعام، ولا ينضج الطعام كما يجب. إليّ به حالاً ..»

هرول الخدم، وأحضروا الطباخ الذي كان يجري ويلهث وينكفئ، ثم ينهض ليتعثر من جديد، وواجهه تفري بنظرات قاتلة حادة، وصاح غاضبًا: «أيها الأحمق، لقد سامحتك عشرات المرات ..»

- «مولاي ..»

- «اخرس .. هاتوا الكرباج»

وانهال تفري على وجهه وجسده ضربًا مبرحًا، والمسكين يئن ويصرخ ويتوسل، ويقبل الأرض، ويمرغ وجهه الدامي الذي شوهه السوط دون جدوى، وما أن شعر تفري بالإرهاق، حتى أقبلت «مالفن» وأمسكت بيده وهي تقول في ضراعة: «قلت لك ارحمه يا تفري .. إنه مسكين .. ألا تسمعني؟؟»

- «هذه هي الطريقة الوحيدة التي ترغمهم على الإخلاص والتروي في أعمالهم، إنني أعرف أن السوط وحده هو الذي يصلح أحوالهم .. ومع ذلك فقد قررت قرارًا لا رجعة فيه .. يجب أن يرحل هذا الأحمق عن قصري منذ الغد .. ولسوف أسافر اليوم، وأعود بعد ثلاثة

أيام . فإذا حضرت من سفري ورأيته هنا ، فلم يكون له عقوبة سوى القتل .. مفهوم؟ »

هتفت مالفن : « تفري ... »

– « انتهى الأمر ، لقد اتخذت قراري ، ولن أتراجع ، إن تفري لا يعرف التراجع ، أغرب عن وجهي أيها النجس ... »

وساد السكون بعد أن خرج الطباخ المسكين وهو يئن ويتوجع ، وتبللت أهداب « مالفن » بالدموع ، وشعرت بحزن عميق أفقدها الرغبة في موصلة تناول الطعام ، وقالت بنبرات حزينة : « لقد خدمك فترة طويلة ، وكنت تحبه وتعطف عليه ، ولم يقصر في حقنا ، وله زوجة وأطفال عديدون ، ألا تغتفر له هذا الخطأ يا تفري للمرة الأخيرة؟؟ »

– « مستحيل ... »

– « إنني أرجوك ... »

قال ساخرًا : « لم هذا العطف الظاهر؟؟ ألمجرد إخلاصه ومهارته وفقره؟؟ ليس لي دخل بكل هذه الأمور ، إنني أنظر لهؤلاء الناس من وجهة نظر واحدة لا تتغير ، هل يصلحون للعمل أم لا؟؟ وفي رأيي أن هذا الطباخ لا كفاءة له ، ومن ثم فلن تستطيع قوة في الوجود أن تجعلني أتخلى عن قراري .. ولسوف أحضر لك من هو أكفأ وأخلص منه .. والآن دعي هذا الأمر يا « مالفن » ، لا يصح أن يشغل من وقتنا وتفكيرنا أكثر من ذلك ... »

وغادر تفري القصر بعد فترة ، ولم تستطع « مالفن » أن تنسى ما حاق بذلك الطباخ المسكين المدعو « يوحانس » ، فاستدعته على عجل ، فقد كان ممزق الوجه ، دامع العينين ، مذعور النظرات ، وهمست : « إجلس يا « يوحانس » .

– « عفوًا مولاتي .. لقد أخطأت خطًا جسيمًا . إنني أستحق كل ما حدث ... »

– « أنت تبالغ أيها المسكين .. إن ما حدث ليس خطأً بالغًا كما

تتصور ، ثم إن كمية الملح ليست بالدرجة التي تصورها تفري ، إن تفري ثائر الأعصاب ، لم ينم الليلة كما يجب ..»

– « إنني أعرف مولاي جيدًا .. إنه لن يتراجع عن قراره »

– « وهذا ما يؤرقني ويتعسني أيها المسكين « يوحانس ..»

– «لسوف أرحل غدًا إلى أديس أبابا .. لم يعد لي عيش هنا ... إن الله لن ينسى أحدًا ..»

قالت وقلبها يتمزق من الأسى : « ولم لا تبق في هذه المدينة ، فقد أستطيع إقناعه بعد سفره! ..»

– « إنني أعمل معه منذ مدة طويلة .. إنه لن يغفر ..»

طأطأت رأسها مكتئبة وقالت : « أعتقد أنه ليس لديك ما يكفيك من المال ..»

وصمت الطباخ بينما هرولت «مالفن» إلى الداخل ، ثم عادت بعد قليل وفي يدها مبلغ من المال يكفيه وزيادة ، ثم قالت : «خذ هذه النقود ، ولسوف أعطيك مكتوبًا لكبير الخدم في قصر الإمبراطور كي يجد لك عملًا هناك .. ألا تحب أن تعمل لدى أخي إياسو ..»

– «مولاتي ، إن إمبراطورنا العظيم إياسو هو هدية السماء إلينا . إننا نحبه لدرجة العبادة ..»

ثم انحنى وخطف يدها وقبلها ..

وانحنى مزمعًا الخروج ، لكنه توقف لدى الباب ، ثم عاد : «مولاتي ..»

– «ماذا تريد يا يوحانس المسكين؟؟ »

طأطأ رأسه ، وقال وهو ينتفض من الاضطراب .

– « أعرف أن تفري زوجك .. وإياسو أخوك .. وأنك سوف تعانين العذاب بين الوفاء لزوجك ، والتضحية بنفسك ، والمحافظة على أخيك إمبراطور البلاد . ..»

– «ماذا تريد أن تقول؟ »

– « إن عطفك البالغ ، قد جعلني مدينًا لك بحياتي ومستقبلي ..»
– «تكلم يا يوحانس ..»
فشرد الطباخ لبضع لحظات ، ثم قال : «كان ذلك في الأسبوع الماضي ، وقبيل منتصف الليل طلب مولاي الأمير تفري أكلة خفيفة له ولبعض الرسميين المجتمعين معه من رجال الدولة.. لم يتنبهوا لوجودي ، كانوا منهمكين في التفكير والتخطيط.. لقد تأكد لي أنه خطير ..»
– «ماذا؟؟ تكلم ..»
– « إنه الغدر يا مولاتي ..»
– « الغدر؟؟ »
– « أجل .. لم أكن أتصور أن «تفري» يخطط لحرب خاطفة يحتل بها «أديس أبابا» ، ويقضي على إياسو الطيب ، ويقيم من نفسه إمبراطورًا مكانه .»
هبت مالفن واقفة ، وتقدمت نحو الطباخ ، وأمسكت بكتفه ، وهزته في انفعال وتوتر ، وقالت : « إن ما تقوله يحمل معنى خطيرًا .. خطيرًا للغاية أواثق أنت مما تقول؟ »
– «كل الثقة يا مولاتي .. لم أقل ما قلت إلا لأرد لك بعض الجميل ، ولأحمي البلاد من فتنة دموية ، قد يراق فيها دماء عشرات الألوف من الرجال والنساء والأطفال ، إن إمبراطورنا العظيم إياسو .. جدير بكل تضحية .. وأنا على استعداد لأن أضحي من أجله بحياتي ..»
دارت الأرض بالأميرة مالفن ، فالقت بنفسها على الكرسي محطمة الروح ، خائرة القوى ، هذه ليست حياة ، إنها غابة للذئاب طافحة بالغدر والخديعة والكذب والأنانية .. هذا الخائن المأفون ، يرقد إلى جواري ، ويأخذني بين ذراعيه القذرتين ، ويهمس في أذني بعبارات الغزل الرقيقة ، في الوقت الذي يدبر المكائد فيه لأخي ، ويعد له خنجرًا مسمومًا كي يطعنه من الخلف ، ما هذا الذي يجري؟؟ مسكين إياسو

الطيب . إن قلبك يمتلئ بالحب والرحمة والولاء لبني البشر ، إن تفري وأمثاله لا يستحقون سوى الحبال التي يجب أن تلتف حول أعناقهم لتزهق أرواحهم . هذه الأفواه القذرة لا يصح أن تسمع لكلمة واحدة من ترهاتها يا إياسو ، وهذه الأيدي الملوثة بالعار والخديعة ما كان لك أن تصافحها يا إياسو ، وهذه العقول المنتنة ما كان لك أن تستعين بها أو تحكّمها في رقاب العباد المساكين .. يا إياسو . لقد حذرتك يا إياسو ذات مرة ، وطلبت منك أن تفرق بيني وبين هذا الشيطان .. لكنك أبيت يا إياسو .. إن سيوف الغدر تتوثب لتقضي عليك ، وتدمر ملكك ، وتنتزع منك حقك الشرعي ، وتقضي على أحلامك في العدل والحرية والمساواة والحب .. أنت تزرع الورود الزكية في أحواض الجيف والمستنقعات الآسنة يا إياسو .. لقد كان عليك أن تنظف أرض الحبشة من الشوك والكذب والنوايا الخبيثة قبل أن تعلق مبادئك السمحة .. أيها المسكين ليتني أطير إليك الآن ، لأضع بين يديك الصورة السوداء لمجتمع الذئاب البشرية التي تتلوث أياديهم بالدم والخيانة ..

وجاءها صوت الطباخ يوحانس : « الوداع يا مولاتي .. »

– « يوحانس .. انتظر .. هل أستطيع أن أحملك رسالة؟ »

– « قلت لمولاتي إنني على استعداد أن أضحي بحياتي .. »

وهرولت إلى الداخل ، وتناولت ورقًا وقلمًا ، وأخذت تدبج رسالتها على عجل ، وتشرح فيها الخطر المحدق بالإمبراطور وبالوحدة الوطنية ، والمؤامرة التي يدبرها تفري ورجال الكنيسة ، وبعد أن خرجت ناولته الرسالة قائلة : « يجب أن تحافظ على هذه الرسالة يا يوحانس كما تحافظ على حياتك .. »

حذار أن تقع في يد أحد وإلا ضعنا ، وضاع كل شيء .. »

– « مولاتي .. لقد تطوعت بكل شيء .. السياط لم تزل تلهب جسدي ، والحقد الأسود يأكل قلبي لم يكن تفري طول حياته مسيحيًا طيبًا بل كان يتصرف كوثني عربيد لا يؤمن بإنسانية إنسان .. »

- « ولكن كيف أعرف أن الرسالة وصلت القصر الإمبراطوري ..»
- « سأعود لك بالرد ..»
- « أتعني ما تقول يا يوحانس؟ ..»
- «لسوف آتي خفية .. وأتسلل في الوقت المناسب .. لقد نذرت نفسي للحفاظ على العرش والأمة .. وليحفظنا الله . ..»



قرأ تفري الرسالة ، وجسده ينتفض من الغيظ ، ووجهه ينبي بكدر شديد ، وظل يقرأها لمدة طويلة ، على الرغم من قصرها وإيجازها ، كانت تكشف عن رأي زوجته فيه ، وتعليقاتها على المؤامرة المتوقعة ، وخوفها على مستقبل أخيها وعرشه ، ثم هدأت أعصابه ، وزايله انفعاله ، وقال : «رائع يا يوحانس .. لقد نجحت خطتنا تمامًا .. كنت أدخرك لمثل هذه المهام الخاصة الخطيرة .. مهام المستقبل والمصير .. لقد كان الأنبا ميتاوس على حق حينما أكد لي أنه يمكنني الاعتماد عليك في أدق الظروف وأحرجها .. إنك مسيحي حق ، تعرف واجبك نحو الكنيسة والوطن ، وتدرك الخطر الأكبر الذي تجتازه بلادنا .. والآن يجب أن تختفي تمامًا عن الأنظار يا يوحانس .. لا يصح أن يراك أحد من حاشية قصري أو الخدم ، وإلا فسد كل تخطيط لنا . إن كل معارفك يجب ألا يروك .. لسوف تذهب إلى أحد الأديرة خارج المدينة كي تختفي فيها لمدة عشرة أيام ، ثم تظهر ومعك الرد على رسالتها .. الرد الذي سوف أكتبه بيدي ، محاولاً جهدي ألا تشك مالفن في صحته .. وبهذا يرتاح بالها ، ويتأكد لها أنها قد كشفت النقاب عن المؤامرة الخطيرة ، وأن أخاها لن يفاجأ بضربتنا ومن ثم يستطيع أن يفسد تدبيرنا ، ويقبض على نواصينا ، ويسوقنا إلى ساحة الإعدام .. كنت أعرف أنها تكرهني .. كانت حياتي

معها، وحياتها معي سلسلة متصلة من الأكاذيب والمراوغة والتظاهر، لقد تزوجتها بدافع سياسي بحت .. إنني أحتقر أفكارها وأفكار أخيها إياسو .. إنها ليست لي ولست لها ..،من ثم فإن نهايتها ستكون تعسة أيها القس المخلص «يوحانس» .. لسوف تكون مكافأتك كبيرة .. ستكون ضابطًا كبيرًا في الحرس الإمبراطوري .. لقد أثبت نجاحك في عشرات المهمات التي كفلتك بها، والتي كلفك بها رجال الكنيسة من قبل .. إنك شخصية فذة نادرة .. هذا ما أردده عنك دائمًا .. ومعذرة إن كانت سياطي قد آلمتك .. لقد خيل إليّ لحظتها أنني لا أضربك .. بل أضرب إياسو الملعون .. هذا الأبله الذي لا يفارق شبحه خيالي .. لقد آلمتك أيها «الطباخ» المسكين .. لكن كان لابد من ذلك حتى نلعب دورنا في مهارة، فتنجح المسرحية، وتؤثر في الجماهير .. أليس كذلك؟؟»

هز الطباخ يوحانس رأسه باسمًا وقال: «تحت أمرك يا مولاي الإمبراطور!!»

– «لم أصبح إمبراطورًا بعد، بدليل أنك لم تزل طباخًا حتى الآن، لا تتعجل الأمور يا يوحانس .. إنني لم أزل «الرأس تفري» حاكم إحدى المقاطعات لا غير ..»

انحنى الطباخ، وتراجع إلى الخلف، وتمتم: «إلى اللقاء أيها الرأس المفكر تفري .. إلى اللقاء ..»



حينما تلقت «مالفن» الرد على رسالتها ذات مساء، كادت تجن من الفرح، لقد تناست مركزها، واختطفت يد «يوحانس» وقبلتها قائلة: «إنني أقبل اليد الطاهرة التي أنقذت مستقبل الحبشة ونجّت الحبيب إياسو. لقد استطعت أيها الرجل الطيب أن تسدد طعنة نجلاء إلى قلب

الخيانة والخسة والنذالة ..»

قال يوحانس: «إني أؤدي واجبي يا مولاتي، وما كان يصح أن تقبلي يد عبدك المطيع .. ولسوف أذهب إلى القصر الإمبراطوري في أديس أبابا، فإذا أتيت يا مولاتي إلى هناك في زيارة فلتذكري عبدك المطيع يوحانس .. لن تتعبي في البحث عنه .. فسيكون هناك في زاوية من زوايا القصر في المطبخ ..»

صافحته في ود، وهمست: «لشد ما يؤلمني فراقك أيها العزيز ..»

– «إلى لقاء قريب يا مولاتي ..»

– «إلى اللقاء يا يوحانس .. تمهل .. وانظر إلى الطريق جيدًا .. فإن حياتك ثمينة، ويجب أن تحافظ عليها، وعندما تنتهي الأزمة فلسوف ترى من إياسو أسخى مكافاة حلمت بها طول حياتك ..»

قال الطباخ: «لقد أديت واجبي، وأرضيت ضميري، وهذا في نظري أعظم مكافاة ..»

وتوارى عند الظلام الذي يحيط بالقصر، وغاص في المجهول، وأخذت «مالفن» تحدق خلفه وهو يبتعد، وقلبها يدق في فرح مختلط بالحزن الشفاف، لشد ما أثر فيها إخلاص ذلك الرجل المسيحي الطيب.

وعادت «مالفن» إلى سريرها هادئة البال، وسرعان ما راحت في سبات عميق، مليء بالأحلام المبتهجة، والأماني الحلوة ..

لم تكن تعلم أن هناك رصاصة انطلقت في الظلام، فأصابت من الطباخ «يوحانس» مقتلًا ... وسقط يسبح في بركة من الدماء .. قال الرأس تفري لنفسه وقد بلغه النبأ المؤسف.

– «كان من الضروري أن أقتله، لقد كشفت له النقاب عن بعض الأمور العائلية الحساسة، كانت معه ورقة يستطيع أن يلعب بها في أي وقت، إن العلاقة الغريبة بيني وبين زوجتي مالفن يجب أن تظل طي الكتمان بالرغم مما يشوبها .. ثم إن يوحانس رجل خطر .. ويبدو أنه

جاسوس للكنيسة عليّ .. لا شك أنه كفاءة ممتازة ، لكنه ماكر ماهر قد يستغل ذكاءه ضدي في أية لحظة ، إني أشعر بالرعب كلما تصورت أن هذا الرجل الخطر ، يعيش في قصري ، ويقدم لي الطعام كل يوم .. أريد أعواني أن يكونوا على جانب متواضع أو متوسط من الذكاء ، أما أولئك الذين يتميزون بذكاء حاد فإني أكرههم ، بل أخافهم .. رحمك الله يا يوحانس المسكين ..»

وفغرت مالفن فاها دهشة في الصباح عندما علمت نبأ مصرع «يوحانس» المسكين .. لم يستطيع ذهنها أن يتصور كيف ولماذا حدثت الجريمة ، فقالت في حزن وحيرة وتوجس : «فليرحمك الله يا يوحانس المسكين ..»



الفصل ١٣

كانت الخطة الجهنمية التي وضعها الفرنسيون والإنجليز مع تفري ورجال الكنيسة خطة محكمة، فعندما تحركت قوات تفري جنوب «أديس أبابا» أشيع أن هذه القوات تزحف لتلحق بجيش الإمبراطور إياسو لمؤازرة تركيا، واتخذت طرقًا ملتوية، وانحرفت إلى بعض الطرق الجانبية بغية التضليل والإبهام، مع أن هذا المسلك قد أرهق قوات تفري بعض الشيء، وأضاع عليها عدة أيام، وانقضت الحملة الكبيرة وعلى رأسها تفري على العاصمة في منتصف ليلة حالكة السواد: وسرعان ما انتشر الغازون في كل مكان، واحتلوا الأماكن الاستراتيجية الحساسة، وحاولوا محاصرة قصر الإمبراطور الغائب، وكانت الوسيلة التي اتبعها تفري في السيطرة، واعتقاله لكبار الشخصيات والقادة وعلماء المسلمين، قد أظهرت دون غموض النية الخبيثة وراء تلك الحشود الداهمة، فتصارع الرجال المخلصون، واختطفوا ما استطاعوا اختطافه من سلاح وذخيرة، ونشبت المعارك اليائسة الضارية، وسالت الدماء في الشوارع، وتحولت المدينة إلى عالم مختلط مضطرب، تاهت فيه الأفكار، وتوالت الضربات العشواء، كان أنصار إياسو يهبون من نومهم، وينطلقون إلى الشوارع ويقذفون بأنفسهم وسط المعمعة وجنود تفري المنظمون يتحركون طبق خطة مرسومة، لاقت الكثير من الاهتزاز والارتباك إزاء عنف المقاومة التي يبديها الرجال المحاصرون، وهرول تفري إلى المطران الأنبا ميتاوس، وقال في حزم: «سيدي المطران، إن أنصار إياسو في النزع الأخير، والمدينة برغم ما فيها من معارك متناثرة يائسة، إلا

أنها في قبضتنا الآن ، وإنني أطلب منك الآن ما اتفقنا عليه .. أعني إصدار بيان باسم الكنيسة ورجال الدين بعزل إياسو فورًا .. سيكون بيانك هو الوثيقة الشرعية ، والورقة الرابحة التي تذيعها على الملأ ، ولابد أن يكون البيان الهام مشتملًا على الأسباب والحيثيات القوية ، ولسوف يبادر قناصل الدول الغربية ، وخاصة فرنسا وانجلترا ، بالاعتراف بالوضع الجديد وسحب اعترافهم السابق بحكومة إياسو وسلطاته ..»

قال ميتاوس : « إن عزل إياسو يقتضي تعيين إمبراطور آخر ، له صفة شرعية ..»

– « إذن فانت تعترض على تعييني إمبراطورًا ..»

– يجب أن تسير الأمور في حذر يا تفري .. إنك من الوجهة الشرعية لا تستحق ذلك ، وانتهاك الدستور في مثل هذه الأوقات الحرجة قد يفسد كل مخططاتنا ..»

قل تفري في ضيق : « هل هذا ما اتفقنا عليه؟؟ »

– « إن الإنجليز موافقون على عزل إياسو ، لكنهم لم يوافقوا بعد على تنصيبك إمبراطورًا ..»

زمجر تفري قائلًا : « إنني على استعداد لأن أتلف كل شيء الآن ..»

قال ميتاوس : «لن تفعل ذلك .. ولن تستطيع ..»

– «معذرة أيها الأب المبجل .. إن الإنجليز ما زالوا يشكون في نواياي ، لكني أكدت لهم أن تعاوننا سيكون على أعلى مستوى ، وفي أغلب الأمور السياسية الحساسة .. إنهم ..»

قاطعه ميتاوس قائلًا : « إن الوريث الشرعي للعرش لابد أن يكون من نسل منليك ..»

– « من؟؟ »

– « الأمير « زوديتو » ابنة مليك ، وخالة إياسو ..»

– «تريدون أن تأتوا بزوجة غوغسا إمبراطورة؟؟ »

ربت ميتاوس على كتف تفري في ود وقال : « لا تتعجل الأمور يا فتى الكنيسة المحبوب .. يجب أن نمضي في تدبر وحكمة، فبلاد الحبشة شاسعة، والملايين ليسوا في صفنا حتى الآن، ولا يغرنك سقوط « أديس أبابا »، فلسوف ينتفض المسلمون خاصة ليدافعوا عن الرجل الذي أمنهم بعد خوف، وأطعمهم من جوع، وبنى لهم المساجد، وحقق لهم الحرية والاستقرار والكسب .. ولسوف يكون توليك الحكم دفعة واحدة غلطة كبرى، إن تلك المخالفة الدستورية، قد تثير العطف على أسرة منليك، وقد تفسد الكثير من تخطيطنا .. فلتكن زوديتو إمبراطورة. ولتكن أنت كفيلًا لها، وقائدًا عامًا للقوات المسلحة، وستكون القوة العسكرية والسياسية كلها في يدك، ولن تكون زوديتو سوى رمز .. إن هذا الرأي قد أقره العقلاء من رجال الكنيسة وأصدقاؤنا الإنجليز والفرنسيون ..»

قال تفري في ضيق ظاهر : « أهذا هو الرأي الأخير ..»

- « ولا رأي غيره ..»

أدرك من بالقصر الإمبراطوري حقيقة ما يجري، فهبت الإمبراطورة ابنة أمير هرر، وارتدت ثيابها على عجل، وهرولت نحو باب القصر، إن الثعابين قد داهمت « أديس أبابا » في غيبة زوجها الإمبراطور، هؤلاء الجبناء الأنذال، قد نقضوا العهود، وأخلوا بواجبات الشرف، ليس هذا غريبًا على تفري الملعون، ألا تأتي الضربة الغادرة إلا من يدك أيها الذئب يا زوج شقيقة الإمبراطور .. لماذا يفعلون ذلك يا إياسو؟؟ لأنه دعا إلى المحبة والتسامح والحرية؟؟ لأنه قد وقف في وجه أطماع رجال الدين، وتعصب الكنيسة، وانحراف المبشرين، وتدخل الأجانب المستعمرين؟؟ أم لأنه أعلن عقيدته الشريفة التي ارتضاها عقله؟ واستجابت لها فطرته، وتشوقت إليها عاطفته؟؟ هم يتآمرون عليك يا إياسو لأنك رجل .. حر .. شريف .. مؤمن، وهم يريدون جيلًا من العبيد الخانعين

المستسلمين المتعصبين .. لسوف أخرج إليهم أيها الحبيب إياسو .. وأصدهم عن بابك الكريم حتى آخر رمق ..» واختطفت قطعة من قطع السلاح .. فاعترضها أحد ضباط القصر : «مولاتيَ .. إلى أين ..»

– «لأسحق رؤوس الثعابين ..»

– «إننا نؤدي واجبنا ..»

– «إن إياسو لن يسقط ..»

– «إن إياسو لن يسقط ..»

– «سنفديه بأرواحنا ..»

– «وتفري لن يرتفع .. لن يرتفع مطلقًا .. سيظل ملتصقًا بالطين ... ذلك الذي خان أواصر الود والقربى ..

– «لن يدخل القصر إلا على أشلائنا يا مولاتي ..»

– «ولسوف يبقى إياسو على الرغم من مكائدهم رمزًا لمجد الحبشة ، وعنوانًا للحب والسلام ، وتعبيرًا رائعًا عن دين الله ... لن ينتصروا ولو سرقوا الكرسي من تحته .. لن ينتصروا ولو تسلموا تقاليد الأمور ..»

ثم صاحت بأعلى صوتها : أيها الرجال .. دافعوا عن حرياتكم ، وعن دستوركم .. الموت لأعداء الأمة ..»

وأخذت تطلق الرصاص إلى جوار الضباط والجنود الذين يدافعون عن القصر ، كانت جموع غفيرة مغبرة السحنات ، تزحف كالذئاب الجائعة صوب القصر ، كان عدد المهاجمين يفوق عدد المدافعين مئات المرات ، وسرعان ما أخذ المهاجمون يتسلقون أسوار القصر ، ويتسللون من أشجار الحديقة الكبيرة ، وبعد فترة من الصراع الدامي الرهيب ، كان القصر يغص بالمتآمرين ، بينما تناثرت جثث الشهداء في ساحاته وأروقته وعلى الأسوار ، وصاحت الإمبراطورة ، والدموع تغرق خديها : أيها اللصوص الأنذال .. أخرجوا من بيت الأمة .. أيها المتسللون لن تنتصروا ..»

ثم خرت مغشيًا عليها ..
وحينما أفاقت من إغماءتها ، وقعت عيناها على الوجه الكئيب الذي تمقُتُه أشد المقت .
-« أيها الرأس القذر عليك اللعنة ..»
قال تفري باسمًا : « إطمئني لن يمسك سوء ، ولن يصاب إياسو بأذى ، لا تنسي أنه أخي ..»
- « أعرف جيدًا أنك لست صادق الوعد ، وانك لا ترعى حرمة الأخوة .. تفري .. أنت أخبث من أنجبت هذه الأرض ..»
انصرف عنها مهتاجًا ، لكنه تمالك أعصابه ، إن هناك من المهام الجسام ما لا يصح أن ينساه ، إن احتلال العاصمة جزء بسيط من المخطط الرهيب ، والمعركة الحاسمة لم تنتهِ بعد ، يجب ألا يفكر في غير ذلك ، لسوف يأتي اليوم الذي ينتقم فيه من كل هؤلاء الحالمين المثاليين الذي تمادوا في حماقاتهم ... إن إياسو لم يزل في الجنوب ، ومعه جيش غير قليل العدد ، وميكائيل أبوه ، ما زال يحكم مقاطعة « وللو » والمعركة قد بدأت .. وبيان ميتاوس قد صدر بعزل « إياسو » وتولية «زوديتو » إمبراطورة ، وتفري قائدًا عامًا للجيش ، وكفيلًا للإمبراطورة ، وقناصل الدول الضالعة في المؤامرة قد أعلنت اعترافها ، بالوضع الجديد ، ورجال الجيش الغادر ، وأتباع الكنيسة ينبثون في كل مكان ، ينشرون الرعب ، ويقضون على الشرفاء ..
قال تفري لميتاوس : «لقد نفذت الخطوة التالية ، أرسلت رسالة إلى «ميكائيل» في «وللو » موقعة باسم أحد أصدقائه المخلصين بالقصر ، وأخبرته أن أعداء الإمبراطور إياسو على وشك أن تسقط العاصمة ، وبهذا سيتحرك ميكائيل قبل أن يكمل استعداده ، وسيسير في الطريق الخطر الذي نصبنا له الكمائن فيه ، وسنتصيد رجاله وهم في حالة من الإعياء وعدم التوقع .. لسوف يخطط ميكائيل للمعركة على أساس أنها في العاصمة ، ولسوف تربكه المباغتة ، حينما يجد

نفسه محصورًا بين جبلين ، ونيران مدافعنا تنصب عليه من أعلى ومن الخلف ومن أمام : فضلاً عن أن ما نملكه من أسلحة حديثة كثيرة ، سيحسم الموقعة لصالحنا ..»

قال ميتاوس : «حسنًا .. كونوا على حذر ، إن إحكام تدبيرنا ، وتنفيذ الخطة بحذافيرها سيضمن النصر ، وأي خطأ في التنفيذ قد يكلفنا الكثير ، وربما حياتنا أيضًا .. فإذا ما سقطنا في يد إياسو أو أبيه فلن يرحمنا أحد ..»

وبدت العاصمة كئيبة حزينة ، يلفها الصمت والرعب ، وينبث فيها الغزاة بعيون يقظة تبرق بالشر ، فلا يكادون يلمحون رجلاً تحوم حوله شبهة من شك حتى تنهال نيرانهم عليه ، وبيوت المسلمين قد دمرت وقتل من فيها من الرجال والنساء والأطفال ، إن تفري لا يعرف الرحمة ، وأوامره صارمة لا يتردد أحد في تنفيذها وإلا كان مصيره الموت .

وأخذت أجراس الكنائس تدق معلنة النصر الكبير .. لقد سقطت العاصمة ، وسقط إياسو ، وسقطت معه كل القيم النبيلة الشريفة التي آمن بها ، ودعا لها ، وها هو الإرهاب بوجهه الكالح الأسود يطل في الشوارع والأزقة والمباني الحكومية ، وفي ضواحي العاصمة ، عادت أيام منليك السوداء ، وعادت الدماء لتخضب التراب الظامئ .. وتهامس المعذبون والمساكين : لماذا؟ لماذا يا إلهي ينتصر الشر ، ويفوز الأنذال في المعركة؟؟ اللهم لا اعتراض على حكمك ، ولا راد لمشيئتك . أنت الحكم العدل ، بيدك مقاليد الأمور ..

قال ميكائيل وهو يشق طريقه عبر الغابات والحقول والقرى الكثيرة : «كنت طول حياتي لا أثق في هذا الرجل ، ويوم أن زفوا ابنتي مالفن إليه ، شعرت أنها تساق إلى حتفها . كيف عاشت المسكينة معه طوال هذه السنين؟؟ وقلت لإياسو يجب أن يفتح عينيه جيدًا ، وألا يشتت جهوده ، ويفتح لنفسه جبهات متعددة .. لكن إياسو الطيب كان

صريحًا جريئًا، يكره المداراة والنفاق، وينفذ فورًا ما يؤمن به.. حاولت إفهامه أن السياسة حيطة ومداراة ويقظة.. وعملية حسابية دقيقة، ومقدمات تؤدي إلى نتائج.. لكن لم يكن حريصًا على شيء بقدر حرصه على أن يعبر عما يعتلج في قلبه من مثل عليا، وأن يضعها موضع التنفيذ.. كانت مثله العليا فوق الاحتفاظ بالعرش، ومن ثم فلم يكن يخاف أي خطر، أو يهاب أية تضحية ما دام يؤمن بما يفعل. لقد كان إياسو الطيب حاكمًا يحكمه ضميره، وكان أعداؤه لا يقيمون للضمير ولا للمثل العليا وزنًا.. وهكذا خدعوه..»

قال أحد الضباط الكبار: «مولاي الأمير.. لقد تعب الجنود، وأرى أن يلقوا رحالهم هنا حتى الصباح، كي ينالوا قسطًا من الراحة، وشيئًا من الطعام..»

قال ميكائيل: «هذا مكان غير مناسب، فالجبال عن يميننا ويسارنا، فلو داهمنا الأعداء لوقعنا في مأزق حرج..»

قال الضابط: «لن يقدم الأعداء إلى هنا قبل أيام، فهم مشغولون بالتمكين لأنفسهم في «أديس أبابا»، وتلك نقطة الضعف فيهم، لقد ركزوا اهتمامهم على العاصمة، ظانين أن الاستيلاء عليها يحسم المعركة، ثم لا تنس أن معلوماتكم الخاصة تؤكد أن الحشود المتآمرة تقف حول العاصمة وبداخلها، وهناك ستكون المعركة الفاصلة..»

- «حسنًا فلينطلق النفير، وليلق الرجال رحالهم..».

واضطجع أغلب الجنود، وسرعان ما راحوا في سبات عميق، أما ميكائيل فقد خاصم النوم جفنيه، إنه يخطط للمعركة، ويتدارس أبعادها ونتائجها، ومن آن لآخر تثب إلى ذهنه صورة صهره الخائن «تفري» عميل الكنيسة، وربيب الاستعمار، ومستنقع الحقد والغدر والخيانة..

وينهال الرصاص كالمطر مع الفجر الوليد، ويثب ميكائيل من خيمته، ويخرج إلى الظلام، إن الموت ينهمر من كل مكان، ماذا

جرى؟؟ أيمكن أن نكون قد وقعنا في فخ محكم من صنع الداهية الأسود القلب؟؟

– «مولاي .. مولاي .. إنها لكارثة كبرى، جموع ضخمة من العدو تحاصرنا من كل ناحية ..»

قال ميكائيل: «لقد وقعنا في خطأ جسيم ..»

– «ماذا نفعل؟؟»

– «فلننسحب على الفور أعتقد أن الطريق أمامنا مزروع بالأعداء المسلحين .. يا لها من خطة ماكرة .. قلت لكم بالأمس إنه مكان غير مناسب .. هيا .. أصدروا الأوامر بالانسحاب على الفور . إن ذلك أقل خطرًا .. لقد أعطينا العدو فرصة ذهبية .. ثم إن المعلومات التي أتتنا من «أديس أبابا» كانت مختلفة أو مغرضة ..»

أفاق الجنود على دوي المدافع والقنابل، والمصابيح الكاشفة، وأخذوا يتراجعون دون نظام تاركين خلفهم الكثير من المؤن والعتاد والمهمات، وكانوا يردون بالمثل بطريقة عشواء، إنهم لا يرون شيئًا، وعدوهم يستطيع أن يصب نيرانه في تلك المنطقة المحصورة الضيقة، وهو واثق أن رصاصاته لن تطيش .. كانت حركة الانسحاب عسيرة. فالأرض المكشوفة تبعد أميالًا كثيرة. والوادي الضيق الذي يسلكه ميكائيل ورجاله، ما زال هدفًا ثمينًا للأعداء، وما أن أشرق الصباح، حتى التحم الفريقان في معركة رهيبة، دافع فيها ميكائيل ورجاله دفاع الأبطال المستميتين، وفقدوا الكثير من الشهداء، وتحت أشعة الشمس الدافئة تلفت ميكائيل حواليه.. ما زال يحيط به من يمين ويسار، والأعداء يتواثبون على مشارف الجبال، وتتدفق موجاتهم من أمام وخلف، إنهم أكثر عددًا وعدة، وأحكم خطة ..

ورفع ميكائيل عينين ضارعتين إلى السماء «إلهي .. إلى من تكلنا؟؟ إلهي هم جنودك المستضعفون، فلتؤيدهم بنصرك الذي وعدت، ولتمنحهم الصبر والقوة، أو فارزقهم الشهادة في سبيلك، كي

يلقوك أبرارًا أحرارًا طاهرين، رفضوا الذل، وأبوا الخنوع، ورفضوا سبيل الغدر والخيانة ..»

ماذا يمكن أن يحدث؟؟

إن المعجزة لم تتحقق، وسقط الآلاف شهداء على أرض المعركة العتيقة .. وتلفت «ميكائيل» حوله، فوجد فوهات البنادق تحيط به من كل جانب .. لقد سقط أسيرًا .. وبعث بنظراته إلى بعيد .. فوجده قادمًا .. ذلك الرجل صاحب الوجه الجامد واللحية المتعفرة، وما أن اقترب منه حتى صاح ميكائيل في وجهه حانقًا: «لقد فعلتها يا تفري ..»

– «معذرة أيها الصهر العزيز .. إن ما نحارب من أجله فوق صلة الرحم والمصاهرة .. إنها إرادة الرب يسوع ..»

قال ميكائيل: «أتعرف الله جيدًا يا تفري؟؟»

– «أتشك في ذلك يا صهري العزيز؟؟»

– «إن الله لا يحب الفتن والمؤامرات الدامية .. ولا الغدر يا تفري ..»

– «هذه وجهة نظر قد أخالفك فيها .. إنها ليست فتنًا ولا مؤامرات ولا غدرًا .. بل حرب تحرير لأبناء المسيحية من براثن الزحف الإسلامي .. لقد تنكر إياسو لدين الآباء والأجداد، وجر البلاد لحرب لا ناقة لها فيها ولا جمل، كان السكوت على ذلك هو الخيانة ..»

هز ميكائيل رأسه وقال: «إنكم تفلسفون انحرافكم يا ولدي إن ما تقوله باسم المسيحية والمسيحيين، يمكن أ يقول إياسو مثله باسم الإسلام والمسلمين، فلماذا لا تنحي ذلك جانبًا، إن الأصل في الموضوع هو أن يكون الحاكم عادلًا رحيمًا بشتى أبناء العقائد المختلفة، وأن يكون معبرًا عن إرادة الغالبية ..»

قال تفري: «إن بلادنا مسيحية، وستظل مسيحية للأبد ..»

تنهد ميكائيل في أسى وقال: «إن المسيحي الطيب لا يفعل ما

تفعله أنت الآن ، ولا يقول مثل تلك الآراء ..»

وخلع تفري غطاء رأسه ، ثم انحنى أمام صهره ، وقال : «ستكون ضيفي لبعض الوقت .. معذرة ، فليس في إمكاني إطلاق سراحك الآن .. إنني أنفذ إرادة أكبر من إرادتي .. لقد أصبحت «زوديتو» إمبراطورة للبلاد ..»

قال ميكائيل : «لا يهمني ما يحدث ، سيان عندي أن أُلقى في سجن ، أو يضمني قبر ، أو أمضي في شوارع المدينة .. لقد أصبحت حياتي بعد ما حدث ، وفي ظل مفاهيمكم السقيمة لا طعم لها .. إن إرادة الله فوق كل إرادة ..»

وهناك بعيدًا في المقاطعة التي يحكمها تفري ، وفي قصره المنيف ، كانت تقيم زوجته «مالفن» ، ورأت تحركات الجيوش الضخمة نحو «أديس أبابا» فخفق قلبها في رعب ، لكنها تماسكت ، وقالت لنفسها : «لا شك أن إياسو قد علم برسالتي؟ ولا بد أنه عاد من الجنوب ليحمي عاصمة ملكه ، ولسوف يلقى تفري الخائن جزاء خيانته وعنده ، لسوف يقع في الحفرة التي حفرها لأخي ..»

وأرادت أن تغادر جناحها الخاص . لتلتقي بالخدم والحراس وتستطلع الأنباء في اليوم التالي ، لكن أحد الضباط الواقفين بالخارج لدى الباب قال : «معذرة يا مولاتي .. إن الأمير قد أصدر أوامره بألا تغادري جناحك الخاص ..»

– «مستحيل .. إنك تمزح ، أيسجن تفري زوجته؟؟ إن في ذلك إهانة كبرى لي ، وله أيضًا .. مستحيل أن يحدث ذلك .. دعني أمضي ..»

– «لا أستطيع أن أخالف الأوامر يا مولاتي ..»

– « إنها وقاحة ..»
– « أعلم ذلك ..»
– « لعلك فهمت الأمر خطأً ..»
– « إنها أوامر مكتوبة وصريحة ، ويعرفها كل من بالقصر ، وعلى رأسهم قائد الحرس » .

صمتت « مالفن » برهة . قد طفح قلبها بسيل عارم من الحقد والكراهية والاحتقار : « إنكم آلات قذرة في يد طاغية لا يرحم ..»
– « لا يصح أن تسيئي إلى زوجك يا مولاتي ..»
– « إنه يريدني رهينة لا زوجة ..»
– « إن أمور الدولة العليا فوق كل اعتبار .. هكذا قالت الأوامر يا مولاتي ..»

صرخت في حدة : « أيها الأذلاء .. يا من ترتعون في ذل الخوف والرذيلة والتعصب .. أنتم جيل من العبيد الأخساء ..»

ثم رفعت يدها ، وهوت بها على وجهه بصفعة قوية ، فبقي الضابط ثابتًا في مكانه دون أن يتحرك .. ثم تمتم في برود : «لن أستطيع السماح لك بالخروج .. تلك هي الأوامر ..»وعادت إلى حجرتها دامعة العينين ، جريحة الفؤاد ، مثلومة الكرامة .. عالم عاصٍ متمرد ، يملؤه الثعالب والذئاب والثعابين ، يلفه الظلام الحالك ، عالمٌ يركع ويجثو في الأوحال ، ويلوث جبينه بالعار والمذلة ، لا أرى جبهة عالية وضاءة تسم على كل الجباه إلا جبهة الحبيب إياسو .. إياسو الإنسان الكبير الذي عرف الطريق إلى الله .. أشهد الله أنك على حقٍ يا إياسو العظيم . وأشهد الله ثانية أنني لن أهبك يا تفري اللعين شيئًا من جسدي ، ولن أفتح لك قلبي ..»



الفصل ١٤

«لك الله يا إياسو ، ثلاث سنوات حكمت فيها الحبشة مرت كالحلم الجميل ، أشرقت فيها الوجوه بالحب ، وفاضت الأنهر بالخيرات ، وابتسمت السماء للورود الندية ، ثلاث سنوات أيها المؤمن الأصيل ، وأنت تحاول جاهدًا أن تقتلع الزيف والخداع ، وأن تسحق مشاعر التعصب الأعمى ، وتعطي بسلوكك الحي أروع الأمثلة للحكم العادل ، كنت تعمل في النور ، وتتحدث في النور ، وتبسط الرأي وتناقشه في النور ، أما أعداؤك - أعداء السلام والإسلام - فقد تستروا وراء الظلام وأظهروا خلاف ما يبطنون ، وتكلموا بما لا يعملون ، وأخفوا حقدهم خلف الابتسامات الكاذبة ، والولاء المزيف .. مسكين يا إياسو ... يا نجم الأمل في ليل الحبشة الحالك السواد!»

هذا ما كان يردده لسان الشعب البائس المغلوب على أمره ، وقد فجع في آماله على حين غرة ، لكن الشعب الأعزل لم يكن لديه غير التأوهات المكتومة والدموع التي يذرفها في ليالي الألم والانتظار ، وانفجر الشعب فجاة .. ؛ تمردت ولايات ، وثارت « أديس أبابا » ، وخرج الألوف العزل يهتفون باسم إياسو صاحب الحق الشرعي ، وحبيب الملايين . وهزت الهتافات أرجاء المدينة ، وأقضت مضاجع المتآمرين ، وكانت هذه الثورات ردًا حاسمًا على دعاوى المبطلين ، إن الشعب لا يريدهم ، فهو يعرف آثامهم ونواياهم الخبيثة ، والشعب لا يريد غير إياسو الإمبراطور الشاب ، الحكيم النظرة ، الساطع المحبة ، العادل في أحكامه ، وبات جليًا أن السكوت على هذه التظاهرات أمر خطر ، يدمر كل ما رسمته يد الفتنة الشيطانية . إن تملق الشعب لم يجد نفعًا ، وتلك الألاعيب والحيل التي قدمها «تفري» لم تنطل عليه ، فإما

أن يتراجع تفري أمام رأي الشعب وغضبته الأبية ، وبذلك يفقد سلطانه وأمله وأمل الكنيسة فيه ؛ وإما أن يمضي في طريقه مهما كلفه ذلك من ثمن ، مدعمًا ببيانات الكنيسة ورضاها ، مسنودًا بعون الحلفاء وتدبيراتهم الخبيثة .

وأخذ تفري يحادث نفسه :

ولكنها فرصة العمر يا تفري إن أم الإمبراطور وأباه وإخوته وزوجته كلهم رهينة في يديك . والعاصمة قد سقطت أمام ضرباتك ، والمواقع العسكرية الممتازة ، تسيطر عليها قواتك ، والحلفاء يقدمون إليك ما أنت في حاجك إليه من المال والسلاح والمعونات الفنية . . فلتسحق هذه الثورة الشعبية المضادة يا تفري .. لتفرق شملها .. فما هو الشعب؟؟ مجموعة من الغوغاء الأغبياء الذين سحرتهم كلمات إياسو المجنون ، وحماسه الأرعن .. الشعب قطيع من الخراف الضالة ، قد تفرقها صيحة بلهاء ، أو تجمعها عصا راع حصيف . . . والشعب يا تفري كأطفال المدارس يصابون بالذعر والهلع أمام إرادة المعلم القاسي ، فينتظمون ويطيعون ولا يهمسون .. والشعب يا تفري لا وزن له في نظر الساسة الحصفاء ... إنه قوة وهمية ، طبل أجوف لا يصدر عنه إلا الضجيج الأخرق الذي يصم الأذن ، دون أن يغير في الأمور تغييرًا فعليًا .

السلاح هو القوة الحقيقية ، والمكيدة هي التي تحرك هذه القوة . إن الملايين العزل يحبون إياسو .. أعرف ذلك .. وهديرهم يملأ الآفاق .. لكن مدافعي سوف تقضي على هذا الضجيج الأرعن ، سوف تقضي على المعنى الأسطوري أو الخرافة .. سوف تقضي على ما يسمونه الشعب ...»

وأصدر تفري أوامره للجنود في كل مكان : -

- «يجب أن تحصدوا هذه التجمعات الشعبية بمدافعكم ، نكّلوا بها أسوأ تنكيل ، لا تأخذكم بهم رحمة ولا شفقة ، فلتحرقوا القرى الثائرة

عن آخرها .. ولا ترحموا شيخًا أو طفلًا أو امرأة .. يجب أن تنفذوا هذه الأوامر بحذافيرها عن إيمان عميق، لكي تحفظوا وحدة الشعب وحريته واستقلاله .. سيروا على بركة الله أيها الرجال الشجعان والنصر لنا ..»

واستطار الشر في كل مكان، وعادت الأرض بما تحمل من آثام وخطايا، باسم الصليب تداس الحرمات، وتزهق الأرواح، وباسم الحرية السمحاء يرسف الملايين في قيود العذاب والأحزان والقهر .. أجل .. سيروا على بركة الله يا جنود تفري ؛ وأشعلوا النار في قلوب المساكين وفي بيوتهم أيضًا ....

وحوصرت إحدى القرى الصغيرة في أواسط الحبشة، وأبدت القرية الصغيرة مقاومة باسلة، وظلت أعلامها تخفق في الآفاق مكتوب عليها «لا إله إلا الله» ... استعصت على قنابل تفري ومدافع جنوده، وتفري ليس لديه وقت يضيعه في جلب الإمدادات، أو الرضى بالمناوشات والمعارك غير الحاسمة، ومن ثم أرسل وفدًا من قبله للقرية، ليعرف مطالبهم : «ماذا تريدون؟؟»

– «إن إياسو صاحب السلطة الشرعية» .

– «سنعطيكم من الميزات أكثر مما أعطاكم إياسو ..»

– «نحن لا نبيع ولا نشتري .. إنما نطلب الحق ..»

– «إذن فلتلقوا السلاح، ولتنسحب جنودنا، ولنتعاهد على ألا يتعرض أحدنا الآخر بأذى .. لا داعي لأن يسقط الرجال قتلى في معركة أكبر من قريتكم وقوتكم، ولتنتظروا لمن يكون النصر .. إن في مقدرونا أن نجلب إليكم عشرات الألوف فيسحقونكم سحقًا .. أيها الشيوخ .. أيها العلماء .. يا رجال الرأي في القرية التزموا الحكمة، وكفى ما أريق من دماء ..»

ولم تكن إمكانات القرية لتسمح لها بالمزيد من المعارك والضحايا، فوافقوا على اقتراح تفري، وانسحبت قوات تفري

وأخلدت القرية للراحة والنوم بعد ليال من العذاب والقتل والدماء .. وفي الفجر عادت القوات الغادرة وعلى رأسها تفري ، ودهمت القرية الحصينة على حين غفلة .. كانت المعارك داخل البيوت وفي الأزقة والحارات الضيقة « عليك اللعنة يا تفري .. أيها الرأس الغادر الكذاب » أصوات الضحايا تنطلق في كل مكان مرددة اللعنة .. وجلس جنود تفري المنتصرون يتقارعون الكؤوس ، ويغنون ويعربدون على الأنقاض ، ويدوسون الأشلاء بأحذيتهم الثقيلة ، ثم أشعلوا فيا النيران ، فأتت عليها عن آخرها .. الخريف الحزين يبكي بدموع السماء ، وجثث الأطفال تنهشها الذئاب ، والأشجار الخضر قد أكلتها نيران الحقد ، والزهور البديعة داستها الأقدام .. وأصدر تفري أوامره :

– « إنني أهدي هذه القرية بمزارعها الشاسعة للكنيسة ، وإنني آمر ببناء قرية نموذجية ، في وسطها كنيسة شامخة ، مكان المسجد القديم .. فلتدق الأجراس ، ولتعلُ التراتيل ، ولتقام الأفراح .. ابتهاجًا بالانتصار الذي وهبه لنا الرب يسوع ..»

وجاءه من بعيد صوت امرأة عجوز : «تفري أيها الشيطان ..أنت لا تعرف الله .. الرب يسوع يكرهك ..»

قال تفري : «هذه العجوز الخرقاء كيف أفلتت من الموت والدمار؟؟ أقتلوها ..»

قالت وطلقات مدفع تنصب عليها : « أيها المخمور .. إنني مسيحية أعبد الله .. عشت وأولادي في القرية في سعادة ونعيم ، حتى أتيتم وهدمتم عشي ، وقتلتم أولادي .. فليقذف الله بكم إلى الجحيم ..»

وأطبقت المسكينة فمها إلى الأبد .. وحينما اقترب منها تفري نظر إلى ذراعها العاري .. كان وشم الصليب يبدو واضحًا مخضبًا بالدماء! ..



قال المطران ميتاوس لتفري عندما زاره الأخير ، بعد القضاء على التظاهرات الشعبية ، وجيوب المقاومة التي انبثقت في شتى الأماكن : «شكرًا أيها العزيز تفري ، لقد أثبت كفاءة نادرة في إداراتك لدفة المعارك في كل مكان ، كما أني أكرر الشكر للهدايا والهبات التي قدمتها للكنيسة ورجالها ..»

قال تفري وابتسامة ماكرة ترتسم على فمه المقيت : « هذا قليل من كثير .. إننا لم ننتصر إلا ببركاتك أيها الأب المقدس ..»

وصمت برهة ثم استطرد قائلًا : «لسوف آمر بهدم المساجد ، ولسوف يقام مكان كل مسجد كنيسة .. ليس هذا فحسب ، بل ستبنى الكنيسة بأيدي المسلمين أنفسهم ، وستكون جميع تكاليف البناء من أموالهم ، ولسوف أعمل على تحويل مُلّاك الأراضى الزراعية من المسلمين إلى عبيد للأرض ، بعد أن أهب هذه الأرض للكنيسة ولجمعيات التبشير التي ترضى عنا ، لقد كان في نيتي أن اذبح كل مسلم على ظهر هذه البلاد . لكنك تعلم أنهم ماهرون في الزراعة والصناعة ، ونشاط البلاد الاقتصادي يعتمد إلى حد كبير على جهودهم المتصلة .. نحن في حاجة ماسة إلى هؤلاء الأذكياء الذين يمتازون بالدأب والصبر ، ولسوف أضع لهم برنامجًا حازمًا للتنصير ، سيكون لك فيه اليد الطولى ، لقد أصدرت أمري فعلًا بإغلاق المدارس التي تدرس العربية ، والمكاتب التي تعمل على تحفيظ القرآن ، وطلبت من الشرطة القبض على أي عالم أو شيخ يحاول أن يلقي دروسًا للوعظ والإرشاد ، لسوف تجف منابعهم الفكرية والثقافية ، ولسوف تنتزع منهم الأرض ، ولسوف أظل معلقًا سياط التنكيل على رؤوسهم ، فيعيشون في جهل وفقر وخوف ، وبهذا نقضي على الإسلام والمسلمين قضاء مبرمًا ... أهناك ما يمكن أن أقدمه قربانًا للرب يسوع ، وللكنيسة الموقرة أكثر من ذلك؟! »

قال ميتاوس وقد أشرقت ملامحه بالبهجة والسرور : «رائع ..

رائع .. إنك تحقق ما كان يحلم به الآباء والأجداد من قديم الزمان ..»

ثم بدا الاكتئاب فجأة على وجه ميتاوس، وقال: «لكن، يا للأسف :!!»

قال تفري مندهشًا: «ماذا؟؟»

– «إياسو .. إنه لم يزل طليقًا، يعيش في أطراف البلاد، وبين التلال والغابات، يثير الحاقدين، وينشر الفساد، ويجمع الأتباع. لكم تمنيت أن أقبض على عنقه بيدي هذه .. لشد ما أكرهه .. أعرف أنه صهرك .. لكنه عصى المسيح، وأفسد علينا حياتنا بترهاته، وما زال يمثل تهديدًا مباشرًا لا يمكن تجاهله ..»

قال تفري ضاحكًا: «إنه لا يشكل في نظري خطرًا يذكر، إنه مجرد قاطع طريق أو لص آبق يتيه في الجبال، وسط نخبة خائفة حاقدة لا وزن لها، إن معظم الحبشة في أيدينا بمدنها الكبرى وقراها وبحيراتها وغاباتها .. ثم إن إياسو لابد وأن يسقط في يدي .. إنني أدبر له تدبيرًا محكمًا ولن يفلت، أنا أعرف من أين آتي هذا الرجل .. أنا لا أخاف المثاليين والحالمين من أمثاله، إن طيبته هي نقطة الضعف فيه، وصراحته قد أوردته موارد الموت، وثقته الكبرى بالشعب قد أورثته البله والإهمال .. ثم لا تنسى أن أسرته كلها رهينة لدينا ..»

قال ميتاوس: «إنني لا أخافه .. لكنه مجرد رمز .. رمز خطر لابد من القضاء عليه، سيظل هذا الرمز أملًا يخفق في صدر المضطهدين من المسلمين والمسيحيين المجانين على السواء .. يجب أن نقضي على هذا الرمز يا تفري، وإلا ظل الخطر محدقًا بنا ..»

قال تفري في ثقة: «إنني كبير التفاؤل .. فالحلفاء يتقدمون، وتركيا تنهزم، والعالم الإسلامي والعربي يئن تحت ضربات الحلفاء، والظروف الدولية والتاريخية ليست في صالح إياسو وأمثاله .. هذا يومنا الأغر أيها المطران العظيم .. إنني أزن الأمور بميزان حساس

ولا أترك شيئًا للصدفة. لقد انتهى إياسو إلى الأبد.. ولم يبق إلا زوديتو ..»

قال ميتاوس: «زوديتو؟؟ ما لها؟؟»

– «الإمبراطورة التي يتحقق في ظلها النصر، وتجلس على كرسي لا يناسبها. التاج لمن يحميه ويدافع عنه ويرعه إلى أوج السماء.. إنني أعجب كيف يحدث ذلك ..»

التفت إليه ميتاوس معاتبًا: «ماذا جرى لك يا تفري؟؟ هذا أمر درسناه ووصلنا إلى رأي نهائي بشأنه.. إن زوديتو لا تعدو كونها لعبة نضحك بها على الشعب، كي تكتسب سياستنا صفة الشرعية.. إننا نفعل ما نشاء باسمها دون أدنى اعتراض منها»

ولم يكن تفري مقتنعًا تمام الاقتناع بهذا الرأي، فهو يعتقد أن الشعب الذي أرغم على الرضا بعزل إياسو في الإمكان إرغامه على قبول تفري إمبراطورًا، لا ينكر تفري أن له أعداء كثيرين، وأنه مكروه من غالبية الشعب، لكن توليه الملك صراحة سوف يزيد من أنصاره، وسيعطيه الفرصة للقضاء على منافسيه من حكام المقاطعات ورجالات الأسرة المقدسة وأقربائها، لكن ميتاوس كان يرفض وجهة نظر تفري، ويرى في ذلك تعجلًا وعدم تبصر، لأنه قد يؤدي إلى انتكاسة خطيرة، وقد يبذر بذور الشقاق بين كبار رجال التكتل المسيحي المتعصب، ومن ثم قد يجد إياسو ثغرة ينفذ منها، ويسترد عرشه المغتصب، ثم إن الأحقاد والمطامع الشخصية بين المتنافسين قد تلجئ بعضهم إلى الانضمام إلى إياسو المسلم نكاية في إخوانهم المسيحيين أو نكاية في تفري الذي أمسك بزمام جميع الأمور في البلاد.

وقال تفري: «لا تنس أن زوديتو أخت «شِو أرقاش»، وأنها خالة إياسو ..»

هز ميتاوس كتفيه في سخرية وقال: «لا يهم.. إن زوديتو في

الحقيقة لا تملك شيئًا .. إنها عارية من السلطة الفعلية ثم إن عيوننا تلاحقها أينما ذهبت، وحيثما حلت .. إن زوديتو تعيش في قفص ذهبي صنعناه لها ..»

قال تفري : «لكم أخاف زوجها ذلك المدعو «غوغسا» .. إنه شرير ذو مطامع، وقد يحاول أن يحطم ذلك القفص الذهبي ليحرر زوجته منه، ومن ثم يستطيع أن يجمع من حوله الأتباع وذوي النفوذ من رجال السياسة والحرب والكنيسة، عندئذ يسقط في أيدينا، ونساق إلى حيث يسقينا الذل والهوان ..»

وأنهى ميتاوس المناقشة قائلًا : «إنك تبالغ كثيرًا يا تفري، إن غوغسا ليس على هذه الحالة من السوء والقحة، وزوديتو ليست بالطفلة الهازلة التي تنساق وراء عواطفها، أو تتبع نزوات زوجها .. لقد انتصرنا على إياسو أخطر رجل في تاريخ الحبشة الحديث .. وهذا يكفي ..»



الفصل ١٥

استمع «إياسو» إلى الأخبار الواردة إليه وهو في الجنوب بدهشة بالغة، لم يصدق أذنيه حينما أخبروه أن العاصمة سقطت في يدي تفري وأعوانه، وارتج عليه وهو يفكر في سقوط القصر الإمبراطوري وبه زوجه وأفراد أسرته، آه.. لقد فعلها تفري، تفري الذي كان يخفي مطامعه وراء قناع من الصمت، أو وراء كلمات معسولة تتحدث عن الولاء والوفاء وأواصر النسب والقربى، وفعلتها الكنيسة التي ادعت الطاعة والموافقة على سياسته، تلك المؤسسات البائسة التي تنضح بالدهاء والتعصب، وفعلها الجنود المغرر بهم.. وأين الشعب؟؟ أين ذهب هذا الدرع الواقي، وذلك الحصن الحصين الذي كنت أعده للأزمات والشدائد؟؟ لقد حملت لواء الحرية، ودعوت إلى التسامح والرخاء، وحاولت جاهدًا أن أنعش حالته الاقتصادية والمعاشية والفكرية... كنت صديقًا للجميع: الفقراء والأغنياء، المسلمين والمسيحيين والوثنيين. حيث حرمات البيوت والمزارع والمساجد والكنائس.. فلم لا يحطم الشعب مؤامرة المتآمرين؟؟ لشد ما يشعر إياسو بالحزن والألم العميق، أكان خاطئًا فيما يفعل؟؟ وهل كان من الضروري أن يعتصم بالدهاء والخديعة، وأني ضرب بيد من حديد على كل حبشي تحوم حوله الشبهات حتى ولو كان تفري أو القساوسة؟؟ أتراه يندم الآن على تمسكه بالقيم الإنسانية الرفيعة؟؟ أكان جده منليك على حق حينما سحق أعداءه، وأذل معارضيه؟؟ أتلك هي النهاية الحزينة التعسة للأيام المتلألئة النابضة بمعاني الخير والحب والرضى!! وتشنّجت أصابعه على بندقية يحملها، وقال وقد هزه الانفعال: «أيها

الرفاق المؤمنون .. هل ترونني أخطأت؟؟ أكنت على باطل؟! »

قال أحد الشيوخ الأتقياء : « أيها الإمبراطور المؤمن .. لا تجعل النكبة تسيطر عليك ، وتضعف من إيمانك بالله وبالقيم العريقة التي دعوت إليها ، إن انتصار الشر يا إياسو الطيب لا يعني أنه صواب . وإن هزيمة الخير في إحدى المعارك ، وفي عصر من العصور لن تنال من قدسيته ... إنه رسالة الأنبياء والمصلحين ، إن القوة الغاشمة يا إياسو الطيب لن تحيل النهار إلى ليل ، ولن تفجر النور في الليل البهيم .. إن تفري وجنوده على باطل وإن انتصروا وساقوا العباد طوع إرادتهم الشقية ، وإنك يا إياسو على حق وإن تشردت في الآفاق ، وسكنت الكهوف ، ولاحقتك وحوش البرية .. حينما اضطهد محمد ﷺ وأصحابه ، وشردوا في الأنحاء ، وحوصروا في شعاب مكة .. كانوا على حق ... وحينما خرج من مكة مهاجرًا إلى المدينة تحت ضغط قريش واضطهادها كان على حق .. ولم ينهزم جيش محمد ﷺ في « أحد » لأنه على باطل .. كان على حق في سويعات الهزيمة والنصر . ما أكثر ما يتعرض المؤمنون للابتلاء والامتحان الشديد ، فيستشهدون ، ويعذبون ، ويسجنون ، ويطاردون ، ... لكنهم في النهاية ينتصرون .. أعني تنتصر مبادؤهم .. أجل أيها الصديق المؤمن إياسو .. انتصر يزيد بقوته المادية الهائلة ، وانتصر الحسين بمبادئه وقوته الروحية عبر الأجيال والحقب .. لقد اختلفت صورة النصر .. ذهب يزيد إلى كرسي الحكم ، وذهب الحسين إلى أريكة الشهداء في الجنة .. أي إياسو الحبيب إن دولة الباطل ساعة .. ودولة الحق إلى قيام الساعة .. وليس أمامنا أيها الإمبراطور الطيب إلا الاستمساك بالحق وإن كان مرًّا ، فإما النصر أو الشهادة في سبيل الله .. والشهادة أروع من النصر .. سيظل صوتك مدويًا عبر القرون ، وسترردده الآكام في كل الآفاق ..

قال إياسو في اكتئاب : « أيها الشيخ الجليل .. إن أمي في قبضة الشيطان »

- «أعرف ذلك .. وأعرف أن زوجتك أيضًا وأختك وصهرك وكل أفراد أسرتك .. فماذا أنت فاعل؟ ..»

أدرك إياسو ما يرمي إليه الشيخ، فقال: «لن أستسلم ..»

- «هذا حق .. إنهم أمانة .. كلنا في قبضة الله .. حتى الشيطان نفسه لا يستطيع أن يخرج من حكم الله .. وتفري .. مهما كانت انتصاراته مخلوق ضعيف، إنه ألعوبة في الأيدي الخبيثة المتمردة .. وتفري له بداية ونهاية، الخلود لله وحده يا إياسو الطيب ..»

احتقن وجه إياسو وزمجر: «الخائن يحبسهم لديه كرهينة .. وزوديتو الإمبراطورة هي الأخرى واجهة زائفة يخفي وراءها ألاعيبه ومكائده .. إن الحبشة اليوم يحكمها عصبة من الشياطين، يحكمها المتعصبون من رجال الدين، والطامعون من رجال السياسة والحرب، والمستعمرون من الحلفاء؛ إن الحال على أسوأ ما تكون ..»

ثم دق الأرض ببندقيته وهدد: «إنني أشعر بالعجز القاتل .. أشعر الآن أني مجرد فرد أو مجموعة من الأفراد المجردين التعساء في مواجهة حشود هائلة مدججة بالسلاح والحقد الأعمى .. لكم أتمنى أن أكون قوة سحرية خالدة لا تموت فانقض عليهم واحدًا واحدًا وأذيقهم الدمار .. إن العار لا يصح أن يبقى .. والباطل يجب أن يسقط .. إن العجز يمزقني .. يمزق روحي ليكن الموت ..»

ودقت الطبول، وانطلق إياسو على رأس رجاله من غور إلى غور، ومن غابة إلى غابة، يخوض المستنقعات، ويعبر الأنهار، ويرافق قطعان الحيوانات والفيلة والوحوش، وينقض على كوكبة من جنود تفري فيمزق شملها، وينتقل من معركة إلى معركة، ومن قرية إلى قرية، لكن طوفان الشر يلاحقه، فيحرق القرى التي تؤازره، ويقيم فيها القواعد، ويشيد الكنائس ويسبي النساء، ويقتل الشباب ..

خمس سنوات أو تقل قليلًا من الكدح والعناء، يقتحم خلالها إياسو مواطن الموت والخطر، ويشق طريق الأهوال بين النيران والملاحقة، إنهم يطاردونه في عنف قاتل، وخاصة بعد أن هُزمت تركيا، وانتصر

الحلفاء ؛ وتدفقت أسلحة الحلفاء على «تفري» أكثر وأكثر .. والإرهاب يجتاح القرى والمدن ، لكن الشعب لم ينس الحبيب إياسو .. لقد غدا أسطور شجية على ألسنة المعذبين الذين يتغنون بالخلاص والتحرر والأمل العذب .. إن أنباءه تترى في كل مكان، وعلى كل لسان .. وميتاوس المطران يصرخ في وجه «تفري» : «قلت لك ألف مرة يجب أن تقضي على هذا «الرمز» الخطر .. لابد من القبض على إياسو أو قتله .. إن الكنيسة على استعداد لأن ترصد لك ما تشاء من الرجال والمال والإمكانات ..»

وتفري يبعث بالسرايا تلو السرايا ، ولا يكف عن حياكة المؤامرات ، ويشيع أنه سوف يقتل أفراد أسرة الإمبراطور المعزول ما لم يسلم نفسه، ويكف عن المقاومة .. إن المطاردة والمعارك الصريحة الواعية لا تحقق لتفري النصر السريع .. لابد أن يغدر ويراوغ حتى يبلغ مناه .

أرسل إلى «إياسو» طالبًا التفاوض، لم تنطل الحيلة على إياسو على الرغم من أن تفري قد أقسم بكل عزيز وغال ، وبحق أواصر القربى والنسب أنه لن يصيب إياسو بسوء ، فقال إياسو ساخرًا : «علام التفاوض؟؟ أظنه يحاول إيهامي بأنه على استعداد لقبول عودتي إلى كرسي الحكم .. هذا مضحك .. أم تراه يساومني على وقف الحرب وتركي للحبشة مع أفراد أسرتي ، مع رصد راتب لنا؟؟ أم تراه يريد مني أن أصدر بيانًا بقبول ما حدث ، وأن أحيا كأي مواطن حبشي!! إنني أعرف تفري جيدًا .. أعرف أنه ذئب مراوغ وأنه لا يقبل بغير القضاء عليّ وعلى أسرتي قضاء مبرمًا .. ألا فليعلم تفري أنني لن أضع يدي الطاهرة في يد الخيانة والغدر ، اليد التي تلوثت بدماء الأبرار والأحرار والشرفاء ..»



الفصل ١٦

أطلقت «مالفن» لدموعها العنان حينما علمت بسقوط العاصمة وأسر أبيها، وزادها ألمًا أن أخاها الشاب يعيش مطاردًا في أطراف المملكة، يبذل الجهود المتواصلة في محاولة يائسة لاسترداد حقه، وإنقاذ شعبه. وكانت الفرحة تموج في قلبها كلما جاءتها أنباء عن انتصاراته الصغيرة، أو كلما سمعت بثورة شعبية في أية ناحية من أنحاء المملكة تدعو إلى إعادة أخيها إياسو، وأخذت مالفن تفكر: كيف تقابل زوجها تفري عند عودته؟ وهل ستذهب لتقيم معه في العاصمة؟؟ وماذا ستقول له أو يقول لها؟؟ ليتها لاقت حتفها قبل أن ترى ما يجري من الأحداث الجسام. إنها تحيا مأساة لعينة لا مثيل لها، زوجها يحارب أخاها، ويسجن أباها، فكيف تبش في وجه هذا الزوج، وكيف تعطيه ما تعطي الزوجة رجلها؟؟ حتى الطلاق لا تستطيعه، أتتجرع السم، وتقضي على هذا الشقاء والعناء النفسي الذي يمزقها؟؟ إنها ترفض ذلك أيضًا، لعلها تفتقر إلى مزيد من الشجاعة كي ترتكب هذه الحماقة، أو لعلها تشعر أن هروبها على هذه الصورة تاركة أفراد أسرتها في خضم تلك المآزق الغريبة هو عين الجبن والنذالة، أو لعل فضولاً من نوع مؤلم يدفعها للحفاظ على حياتها كي ترى خاتمة المأساة المرعبة.. كانت «مالفن» تعيش وحيدة في جناحها كالمسجونة، الخدم يؤدون ما تحتاج إليه في صمت وارتباك، والحارس يقف لدى باب الجناح الخاص دون أن يسمح لها حتى بالخروج إلى الحديقة، هذه هي أوامر تفري، إنه لا يفعل ذلك حفاظًا عليها، أو حرصًا على حياتها .. بل يفعل ذلك من أجل نفسه ..

فهو يخاف أن ينطلق لسانها بكلمات نقد جارح ، أو هجوم شخصي ، ويخاف أن ترتكب في حقه حماقة من الحماقات ، وقد تفكر في الهرب كي تلحق بأهلها . وهذا لا يليق بسمعته كوصي على العرش ، وكقائد عام للقوات المسلحة ، إنه أصبح الرجل الأول في البلاد ، ولا يصح أن تلوك الألسنة سيرته أو سيرة زوجته ، ويجب أن يتجنب أي حادث يجعل سيرته أو سيرتها مضغة في الأفواه . وهكذا بقيت «مالفن» حزينة حائرة ، لا يحلو لها نوم . ولا تستطيب طعامًا ، وقد أورثها القلق شحوبًا في وجهها ، وحيرة في نظراتها ، وصداعًا مزمنًا برأسها .. لقد ملت كل شيء حولها : وجو الناس ، كلمات التحية التي تسكب في أذنيها دون معنى ، الحجرات .. النوافذ . الأسرّة .. التماثيل الجامدة .. الستائر القائمة .. الفراغ .. الانتظار الممل .. العملاق اللعين الذي يقف حارسًا لدى الباب .. العيون الفضولية التي ترمقها خفية ، وفيها تعبير غريب لا تدري أهو الشماتة أم العطف .. لقد كرهت كل ذلك .. وكرهت حياتها ونفسها وأفكارها التي تجترها .. وأحلام نومها البغيضة .. وبدت لها الذكريات القيمة وكأنها جنة وارفة الظلال تنبض بأحلى أماني الثمر وأناشيده .. كانت هي وإياسو يلعبان كعصفورين بريئين في رحبة القصر ، ويجريان في رشاقة .. وجدهما الإمبراطور يقدم لهم الحلوى والابتسامات .. وكبار الرجال ينحنون لهما في احترام ، ويقبلون أياديهما الصغيرة .. لم يكن هناك مستحيل ، ولا رغبة مؤجلة .. كل شيء رهن الإشارة .. لا يلقيان أينما ذهبا إلا الابتسامات والترحيب والحب .. والذكريات زاد المسافرين في رحلة العناء والأحزان والدموع .. لقد ضاع كل شيء .. ضاع الأمان وهذا أتعس ما يصاب به الإنسان الحر . أجل لقد ضاع الأمان ، فتوشح العالم بالسواد ، وتسربت المنى بالأحزان .. وغرقت دنيا الجمال في ظلمات من القهر والضياع والخوف ...أي معنى للحياة بلا أمان؟؟

«آه .. أين أنت الآن يا أمي الحبيبة «شو أرقاش»؟؟ أين كلماتك الحنونة ولمستك الحبيبة، وقلبك الكبير الذي يتسع لما كنت أعانيه من آلام؟؟ وهل فعل بك تفري ما فعله بأبي؟؟ وكيف تعيشين شتاء عمرك الأسيف وأنت بين هذه العواصف المزمجرة، والرعود الداوية»

«وأين أنت يا إياسو الحبيب.. يا أنشودة الأمل على شفاه المساكين والمقهورين؟ وأنت يا أبي يا منبع الحنان الصافي، كيف تغير تاج المشيب على رأسك الوقور في غبار المعارك الآثمة التي أشعلها تفري؟؟ وكيف تلقيت الصدمة القاتلة من إنسان تربطك به أواصر النسب، وتفتح له قلبك، وزوجته ابنتك فلذة كبدك؟؟ وكيف تحيا وحيدًا في معتقلك رهين القيد والصمت والظلام، لا تعرف ما يأتي به الغد من مفاجآت؟»



جاءت وصيفتها ذات صباح وقالت: «مولاتي ..»

لم تجب مالفن، فاستطردت الوصيفة: «إن مولاي قادم اليوم»

– «تفري؟»

– «أجل ..»

دق قلبها، وهبت واقفة .. ضاعت معالم التفكير وخطوطه في ذهنها المتعب المكدود، وأخذت عيناها تذرفان بلا وعي، شعرت برغبة حارقة في البكاء، لكنها تماسكت، كانت دموعها أقوى من طاقتها، فتدفقت، ومن ضباب الدموع رأت وصيفتها هي الأخرى تبكي، فاندفعت «مالفن» نحوها وضمتها إلى صدرها، وهي تتمتم: «معذرة يا أختاه .. إنني أتعذب»

– «مولاتي .. أعرف ما تنوءين تحته من آلام .. فليعاونك الله ..»

– «لقد أصبحت محطمة .. لم يعد هناك معنى لوجودي ..»

- « الجميع هنا يدركون يا مولاتي مأساتك الكبيرة ..»

وعادت مالفن إلى مقعدها ، وأخذت تجفف دموعها وتقول : « إنني تائهة يا أختاه .. لا أدري ماذا أفعل؟؟ كيف أقابله؟؟ ماذا أقول له؟؟ كيف أعيش معه؟؟ إن أشباح أسرتي المسكينة يتناحبون من حولي .. أبي في قيوده .. أمي في أحزانها ودموعها .. أخي الذي يتواثب على الجبال تحت وهج الشمس ، أو لذعات البرد القارص .. إن استقامة حياتي مع تفري مستحيلة ، ستكون زيفًا ونفاقًا وتشويهًا .. أنا لا أستطيع أن أضع قناعًا كاذبًا فوق وجهي .. إذا استطعت أن أخدع نفسي - وهذا مستحيل - فلن أستطيع خداع الناس أو خداع تفري .. الجميع يعرفون الحقيقة .. إذا سرت إلى جوار تفري أشار الناس إليّ قائلين : هذه أخت إياسو وابنة ميكائيل .. وإذا انفردت بتفري فسيرى في عينيّ ما لا أستطيع أن أعبر عنه .. إذا كان الطلاق مستحيلًا ، فلابد من حل آخر ...»

قالت الوصيفة : « أي حل؟ إنها مأساة يا مولاتي ..»

- «لنبق أمام الناس زوجة .. ولننفصل في الحقيقة .. إن مواجهة تفري وممارسة حياتي العادية معه مستحيلة ، إنني واثقة أن ذلك لا يروق له كما أنه لا يروق لي ..»

وصمتت «مالفن» بينما اقتربت منها الوصيفة وجثت عند قدميها وقالت : «مولاتي .. تستطيعين أن تلعبي دورًا هامًا في تلك المشكلة الكبرى ، إنني أعتقد ذلك ، لماذا لا تكونين حمامة سلام بين أسرتك وبين تفري؟ إن جلسة واحدة في حجرة الزوجية مع تفري تستطيعين خلالها أن تحققي الكثير من الأهداف التي عجزت السياسة والحرب عن تحقيقها .. لست أدري لماذا لا تجربين هذه المحاولة ، لا من أجلك أنت ، بل من أجل أخيك وأبيك .. فإذا نجحت فقد حققت أملًا منشودًا ، وإذا لم تنجحي فلن تخسري شيئًا ، إنني أعتقد أن هذا هو واجبك .. معذرة يا مولاتي .. أنت بنت الصدق والصراحة .. لكنني

خبرت حياة القصور، وجربت الحياة أكثر، إنني أكبرك بعشر سنوات .. وأعرف تفري منذ زمن بعيد ..»

استمعت «مالفن» إلى قول وصيفتها في اهتمام بالغ، وأخذت تفكر في ذلك العرض الذكي، الذي ليس له دافع سوى المصلحة. لكن على أي أساس يكون حديثها مع تفري؟؟ وماذا تطلب منه على وجه التحديد؟؟ أمن المعقول أن تطلب منه أن يعود أبوها إلى «وللو» حاكمًا؟؟ أيمكن أن تقول له: يجب أن يعود إياسو إلى العرش، وأن يبقى تفري نائبًا للإمبراطور وقائدًا عامًا للجيش؟؟ هل هذا عرض معقول بعد أن احتدمت الحروب، وسالت الدماء، وتأرثت الأحقاد، وقامت الكنيسة ورجال الإعلام بحملات ضخمة تلوث فيها تاريخ إياسو ومجده وأفكاره.. إن هذه مجرد أوهام فماذا تعرض على تفري إذن؟؟ أن يؤمّن أخاها، ويطلق سراح أبيها، وأن يجري لهما راتبًا، دون أن يكون لهما دخل في السياسة أو شئون الحكم وهل يقبل إياسو أو أبوها هذا العرض؟؟ ولهذا قالت مالفن: «إن الأمر يا أختاه جد معقد، فما هو العرض الي يقبله تفري، وتقبله أسرتي في نفس الوقت؟؟»

قالت الوصيفة:

«أنا لا أعرف على وجه اليقين، لكن هذا ما تستطيعين تبينه عندما تناقشين الأمور مع تفري، لسوف يفتح الحديث الخاص أمامك الكثير من المداخل، وسيلقي الأضواء على كل ما يلازم الموقف من مشاكل وتعقيدات ..»

هزت «مالفن» رأسها في اكتئاب وقالت: «لن أدخر وسعًا في بذل أي شيء من أجل أسرتي.. إنني على استعداد لأن أضحي بحياتي من أجل الحفاظ على كرامتها وحمايتها، لسوف أنحي مشاعري الخاصة، ولسوف ألتزم صفة جديدة أنكر فيها ذاتي وحكمي الشخصي.. لسوف أعمل المستحيل من أجلك يا أبي.. من أجلك يا

إياسو الطيب الحبيب ..»

قالت الوصيفة: «هذا عين العقل .. يجب ألا تفكري على أسس مثالية حالمة، بل إن تفكيرك يجب أن ينطلق من خضم الواقع المرير الأليم، إنه لشيء مؤسف حقًا، لكن لا مناص من الاعتراف بذلك، هل تتصورين أن يعود تفري مرة أخرى حاكمًا لمقاطعة من المقاطعات؟ مستحيل .. فكري في ذلك جيدًا .. وأظن أن عرضي للأمور واضح لديك يا مولاتي ..»

قالت «مالفن»: «أعرف ذلك .. وإني لك لجد شاكرة ..»

ابتسمت الوصيفة وقالت دون أن تنجلي مسحة الحزن عن وجهها: «إن زوجك الذي غاب عنك هذه المدة الطويلة يجب أن يراك في أحسن حال، يجب أن تغيري هذه الثياب، وأن تتعطري بأطيب العطور .. إن الرائحة الزكية الفعالة تريح قلب الرجل، وتهدئ من روعه، وترقق من حاشيته، فيخفق قلبه في جو شاعري جميل .. يتحول إلى وداعة وطاعة واستسلام بين يدي امرأته .. ابتسمي يا مولاتي .. إن أباك ما يزال بخير، وأخوك لم يزل يحمل السلاح، والملايين يلهجون باسمه، وسيظل محبوبًا من الناس على الرغم من عدم بقائه إمبراطورًا .. لقد ملك عرش القلوب .. ولا تنس أن تفري - مهما كان الأمر - زوجك .. وأنه لن يكون قاسيًا بأي حال من الأحوال .. إن ما حدث من الحروب ليس أمرًا شخصيًا، إنه صراع أفكار وسياسات مختلفة، تحيط به عديد من الظروف والملابسات .. إن الحكم على ما حدث يحتاج لتبصر وفهم أعمق .. إنه شيء آخر غير إياسو وتفري .. وأنت تدركين ما أرمي إليه ..»

قالت مالفن: «على الرغم من أنني لا أقرك على كل التفسيرات لتي تبدينها، إلا أنني أعتز برأيك، وأعتقد أن هناك الكثير مما تقولين يلتزم الإخلاص والصدق وذكاء التعبير .. إنني أعرف ما ترمين إليه ..»

– « أشكرك يا مولاتي ..»

– « بل أنا أشكر لك آراءك الطيبة .. وسأظل أحفظ لك هذا الجميل ، لقد أمكنني بالفعل أن أتبين طريقي وسط الضباب واليأس والظلمات التي تحيط بي من كل جانب ..»

قالت الوصيفة وهي تنصرف : « فليرعاك الله ، وليكتب لك التوفيق والسعادة ..»



الفصل ١٧

رأته قائمًا بسمته المعهود، لكأنه الموت يحيط بها من كل جانب، يمضي منتفخ الأوداج متعاليًا متغطرسًا، كأنه إله صغير .. النفير يدوي، والطريق مفروشة بالأزاهير، والطبول تدق مع الأجراس المجنونة، لمحقق النصر، وحامي حمى الكنيسة، وغمغمت بينها وبين نفسها «آه يا مالفن كيف تبتسمين في وجهه؟؟ إن ابتسامتك ستولد ميتة، وقد تتحول إلى صرخة اشمئزاز وحقد. وهل ستهنئينه بالنصر على أخيك وأبيك، أم تنكرين عليه ذلك النصر اللعين الذي جر عليك الوبال، وجلب عليه العار؟؟ أي تفري يا معين الخيانة والغدر إنني ألعنك صباح مساء، لِمَ لَمْ تمت كما مات إخوتك العشرة من قبل؟؟ لكنها إرادة الله . . .»

قالت وهي تبتسم ابتسامة شاحبة: «إنني أحمد الله على سلامتك»

رمقها في شك، ثم استدرك قائلًا: «هل أنت بخير؟؟»

– «أشكرك كنت قلقة من أجلك»

كشف القناع عن وجهه دون حياء وقال وهو يحاول الانشغال بشيء تافه: «أعرف أن الأحداث الأخيرة قد تركت في نفسك أثرًا لا يمحى .. هذا أمر طبيعي»

– «إنك زوجي يا تفري، وإياسو أخي .. إن الصراع بينكما صراع أخوة مهما كان الأمر، ولن يبلغ مرحلة التصفية الخشنة . . .»

قال وهو يواجهها في صراحة: «بل صراع مبادئ يا «مالفن»، إنني رجل مسيحي أغار على ديني وعقيدتي، وأؤمن أن الحبشة بلد المسيحية، تمامًا كما تقولين عن مكة بلد الإسلام. إنني أرفض وأعارض بشدة أن تتخذ الحبشة صفة غير الصفة المسيحية، كما

أرفض دون تردد أن يكون إمبراطور الحبشة مسلمًا ، تلك هي القضية ، إنني أعبر فيما فعلته عما يجيش في صدور الحبشيين المسيحيين وما يريده رجال الكنيسة ، وهم السلطة الروحية .. أعني السلطة العليا في البلاد ، إنني مجرد جندي مؤمن أدافع عن هذه المبادئ ، وليس لي أي هدف شخصي ، وما أقدمت عليه بالنسبة لإياسو كان من الضروري أن نقوم بمثله في مواجهة أي منحرف ، وبأسلوب أفظع .. وأنا في الحقيقة لم أكن أنوي أن أفعل سوى تسليم السلطة بهدوء لمن يؤمن بهذه المبادئ . لكن أباك ساق الجنود ، وأراد ن يشعل حربًا دينية .. معذرة إنني لا أقر ميكائيل على ما فعله ، كان مسلمًا وبين نفسه ، ومسيحيًا في الظاهر ، إن هذا الانفصام والالتواء لم تكن لتطيقهما الحبشة ..»

قالت مالفن وهي تحاول أن تخفف من حدة انفعاله : « إن إياسو أخوك ..»

– « هذا هو شعوري ، ولقد حاولت التفاوض معه ، لكنه أبي ، وأصر على مواصلة الحرب على الرغم من أنه يدرك الأمور جيدًا ، ويعلم علم اليقين أنه يخوض معركة يائسة .. لو كان يعتصم بمنطق العقل ، ومتطلبات الواقع ، لألقى السلاح فورًا .. إنه يتحرك بدافع شخصي ، يبدو أن الحقد يأكل قلبه ، هل تضايق لأن تفري انتصر وانتصرت مبادئه؟ أنا لا أتباهى بما حققته ، ولكني أقرر واقعًا .»

فاقتربت مالفن منه وقالت : « أي تفري . لماذا لا تحاول من جديد؟؟ إن إياسو طيب القلب »

– « وما الحل الذي تقترحينه؟؟ »

– « ماذا ترى أنت؟؟ »

– « إن الأحداث قد أجابت على هذا السؤال ، لقد حلت المشكلة بالنسبة لي وللحبشة ، لكن إياسو يصر على تجميد الموقف ماذا يريد بالضبط؟؟ هل يتصور أنه في الإمكان أن يعود إمبراطورًا؟؟ هذا

هراء .. إن ما أراه هو أن يلقي السلاح ، وأن يعلن تخليه عن إسلامه ، ثم يقدم للكنيسة طائعًا تائبًا .. ولتفعل الكنيسة بعد ذلك ما تشاء ..»

حاولت مالفن أن تفهمه أن هذا الموقف المتشدد لا يمكن أن يحل الوضع المعقد ، إن إياسو يفضل أن يضحي بحياته على أن يقدم نفسه ذليلًا مهزومًا للكنيسة ، ثم إن مسألة العقيدة الدينية لا يصح أن تكون محل نقاش ، إنها مسألة شخصية ، وإياسو حين أسلم أسلم بعد تفكير واقتناع ، ولا يمكن أن يتراجع لمجرد ما حاق به من هزيمة ، كانت «مالفن» ترى من حيث المبدأ أن يحاول تفري إعادة أبيها إلى منصبه في مقاطعة «وللو» ، فإذا ما حدث ذلك ، فستهدأ الخواطر ، ويقدم تفري بذلك الدليل على حسن نواياه ورغبته في تصفية الأمر ، أما بالنسبة لإياسو فإن الأمر أشد تعقيدًا ، ألا يمكن أن يكون هناك استفتاء للشعب يختار فيه إمبراطوره بمحض إرادته؟؟

وأمام المقترحات التي قدمتها مالفن. قال تفري: «إنني لا يمكنني أن أفعل ذلك بالنسبة لأبيك .. من أنا؟؟ مجرد قائد لمعركة يتلقى أوامره من جهات عليا . إن هناك مؤسسات دينية وسياسية هي التي ترسم خطوط السياسة الداخلية والخارجية .. ثم أن أباك ومواقفه المعادية ، وتاريخه المرتبك لا يساعدني على أن أقدم مثل هذا الاقتراح ، بل على العكس لسوف يلومني الجميع .. سيقولون إن تفري يحاول أن يهادن أقاربه وأصهاره ، لقد عنفوني لأنني لم... ماذا أقول؟؟ كانوا يريدون تنفيذ حكم الإعدام في صهري العزيز ميكائيل بعد القبض عليه .. لكن لم أستطع أن أقبل هذا .. إنه مستحيل ، لقد رفضت ذلك بكل قوة .. وقدمت رقبتي فداءً له ، ومن ثم اكتفوا باعتقاله ..»

قالت مالفن محاولة أن تثير حميته ، وتغذي غروره : «لكنك بالنسبة لهم كل شيء يا تفري ، أنت الذي حققت النصر بسرعة مذهلة .

وأنت المخلص الأكبر للكنيسة والدولة، ومنصبك الحالي يجعلك تمثل أكبر ثقل في الدولة ..»

قال تفري: «أي عزيزتي مالفن. لكم كان يعز عليّ أن أخوض حربًا ضد شقيق زوجتي وأبيها .. إنها مهمة صعبة مقيتة إلى نفسي لكنني لو تقاعست لقام بها غيري، ولذبحنا جميعًا أنا وأنت وأسرتك كلها، كان من الحكمة واللباقة أن أؤدي ما طلب مني، ومن ثم استطعت أن أحمي روحي وأرواحكم. لسوف ينكر التاريخ أنني لم أكن خائنًا أو متآمرًا .. لقد أديت واجبي بما يرضي الله والضمير والأمة ..»

نظرت إليه في دهشة، هذا الشيطان يحاول أن يبدو في صورة الملاك المخلّص، أتراه نسي الدماء التي أراقها؟؟ وهل نسي الثقة التي أوليناها إياها؟؟ أينكر الوسائل الخبيثة التي توسل بها للقضاء على خصومه في الرأي والعقيدة؟؟ إن رائحة القرى التي أحرقت، والجثث التي تراصت في العراء، وآلاف المكائد البشعة ... إن رائحة هذا كله تفوح من أردائه .. أين مثل هذا الشيطان من إياسو المؤمن الطيب الذي لم يفكر في الانتقام ممن حاول قتله؟؟ لا .. لا .. لا يصح أن تعقد مقارنة بين الأرض والسماء، والليل والنهار، والبساتين المورقة المزهرة والصحراء الجرداء .. ؛ إن مثل هذه المتناقضات لا تحتاج إلى شرح أو تبيان .. سكان الحبشة جميعًا بما فيهم المسيحيون والوثنيون والمسلمون يعرفون من إياسو ومن تفري؟؟ المتبجح الملعون تفري ... يحاول جاهدًا أن يكسو فظائعه ووحشيته بلباس المبادئ والشرعية، ويلتمس لها المعاذير ..

وعاد تفري يقول: «إن اختيار خالتك «زوديتو» إمبراطورة قد حل الإشكال، وكان من الواجب على إياسو وعلى أبيك أن يعلنا تأييدهما لهذه الخطوة الموفقة، حفاظًا على وحدة الأمة، وحفاظًا

على كيان أسرتهما .. إن تصرفاتهما التي جانبها التوفيق ستؤدي إلى المزيد من النكبات والدماء والقلاقل ..».

قالت «مالفن» : «وإذا استطعت إقناع إياسو بوقف الغارات؟؟»

– «سيكون هذا عملاً رائعًا منك»

– «والنتيجة العملية لهذا؟؟»

– «أن يحيا في قصر خاص، ونقيم راتبًا يكفيه، ونحيطه بما يريد من خدم وحرس : على شرط أن يعلن تأييده للوضع القائم، وألا يطمع في أي منصب، وأن يعلن أبوك تأييده كذلك، مع عدم التفكير في العودة إلى «وللو» مرة ثانية .. يجب أن يبتعدا عن العمل السياسي كلية ..»

كانت «مالفن» تشك كثيرًا في قبول أخيها لهذا العرض، فهي تعلم الكثير عن أخلاقه وتفكيره ومبادئه، إنه يفضل أن يراق دمه على سفوح التلال، وتنهش جسده الوحوش على أن يقر بوضع شاءه ظالم لا يرتاح إليه ضميره، ولا يؤمن به عقله، لكن لماذا لا تحاول؟ إنها لن تخسر شيئًا »

– «سأحاول أن أفعل ذلك يا تفري؟»

وأعطت «مالفن» ظهرها لتفري، وشبكت يديها فوق صدرها وقالت : «إنني عاتبة عليك يا تفري»

– «لماذا؟؟»

– «لقد وضعتني في موقف حرج، إذ كيف تقيم على بابي سجانًا يمنعني من الخروج؟؟ أنسيت أنني زوجتك، وأن هذا قد يثير التساؤل والعجب في نفوس الناس؟؟ إلا تثق فيّ يا تفري؟؟»

وتذكر تفري الرسالة التي كتبتها إلى أخيها، وكيف كان بدنه يقشعر لقسوة الكلمات التي كتبتها، كان واضحًا أنها تقف إلى جوار أخيها، وفي الوقت نفسه تعارض زوجها بشدة، وتأخذ عليه مسلكه الشائن الحقير، لكنه لا يستطيع الآن أن يوضح لها ذلك كله، ومن ثم

قال : «عزيزتي «مالفن» ، كنت مضطرًا إلى ذلك ، لقد كان إجراءً مؤقتًا ، والأحداث أكبر مني ومنك ، ولقد أسلفت لك أن هناك سلطة عليا تحكم تصرفاتي ، ومن الحكمة ألا أعارض هذه السلطة ، إنني أعتذر إليك عما حدث ، لكني كنت مضطرًا إلى ذلك .. وهأنذا قد عدت إليك بعد أن أوشكت الأمور على الاستتباب ، فلتنعمي بحريتك كما تشائين ، ولسوف نرحل إلى العاصمة «أديس أبابا» ، إن زوجك الآن وصي على العرش ، وقائد أعلى للقوات المسلحة ، وسترين في حياتنا الجديدة ما يملأ فؤادك بالرضى والسعادة ، فلا تقلقي على أبيك أو أخيك ، فلسوف أحفظهما من كل سوء» .

قالت : وقد نزلت كلماته بردًا وسلامًا على قلبها الذي يتعذب : «أتعدني بذلك يا تفري؟؟» .

– «أقسم بشرفي على ذلك ..»

استدارات إليه باسمة وقالت : «كم أنا سعيدة!!»

ساورها قليل من الشك في كلماته .. لكنها رأت من المعقول أن يتصرف تفري مثل هذا التصرف ، إنه ليس وحشًا في غابة ، إنه إنسان على أية حال ، وصراع السلطة لا يجعله يتشفى في أصهاره برغم كل ما حدث . كانت راغبة في تصديقه ، وخاصة أنها لا تستطيع أن تتصور حدوث شيء خلاف ذلك ..

منذ أن انتقلت «مالفن» مع زوجها إلى العاصمة ، وهي لا تكف عن تهذيب حاشية تفري ، وترقيق عاطفته بالنسبة لأهلها ، حاولت في استماتة أن تجعله يفرج عن أبيها السجين ، لكنه أكد لها أن ذلك سيحدث عندما يلقي «إياسو» السلاح ، وأكد لها أن أباها يعيش في بحبوحة من العيش ، وأنه يعامل أحسن معاملة ، وأخذت رسائل

«مالفن» تترى على إياسو، شارحة له وجهة نظرها ووجهة نظر تفري، وكانت إجابات إياسو لا تخرج عن معنى واحد وهو أنه على حق، وأنه لن يفرط قيد أنملة في هذا الحق، مهما كلفه من تضحيات، ولسوف يواصل نضاله حتى آخر رمق، ولو بقي في الميدان وحده..

وكان تفري لا يفتأ يعتب عليها ويقول لها. ها أنت ترين تردده وإصراره على المضي في خطه العدائي.. إنه يكرهني يا مالفن، هو لا يهمه أمر البلاد، فلنغرق في طوفان من الدماء، ولا يهمه أمر المسلمين الذين يحبهم ويحبونه، إنني أعترف أن حملاتنا التأديبية لا تكف عن التنكيل بهؤلاء المسلمين، بعد أن ملأ أخوك رؤوسهم بالترهات والأوهام والتمرد، إننا ننكل بهم بسببه، فهم يساعدونه، وهم يرددون أفكاره، ويشيعون الكثير عن انتصاراته الوهمية، ويجعلون منه أسطورة نضال رائع يتغنون بها، إن الدولة لا يمكن أن تسكت على هذا الانحراف.. قلت لك ألف مرة إن الحبشة مسيحية، ولن تكون غير ذلك حتى ولو بلغ تعداد المسلمين تسعة وتسعين في المائة.. لكنني لم أزل انتظر لعل إياسو يفيق من غيه، ويثوب إلى رشده..»

قالت مالفن: «إنني أريد أن أفعل شيئًا أخيرًا يا تفري»

قال تفري: «ماذا»؟ قالت: «أن ألتقي بإياسو..»

– «هذه فكرة صائبة.. لكن كيف؟؟»

– «سأراسله حول هذا الموضوع، إنه يسره أن يلقاني..»

– «لقد أصبح إياسو يشك في أقرب الناس إليه..»

– «لكني أخته.. إنني حريصة على أن يسود بينكما الوئام، وأن تحيا أسرتنا حياة طيبة تليق بكرامتها وماضيها، وأريد في نفس الوقت أن أنفي الحرج الذي يلاحقك، فإن صراعك مع صهرك مسألة تلفت النظر..»

– «وما ذنبي أنا؟؟»

حدجته بنظرة خاطفة ذات معنى ، فهي تعلم أنه سبب البلاء كله ، وأن أطماعه الخبيثة ، هي التي ملأت الأرض بالدماء والخطايا ، لكنها لم تعد بقادرة على مواجهته بذلك ، لقد أصبحت هي وأخوها في الجانب الأضعف ، ومن ثم لابد أن تغض الطرف عما يهرف به من أكاذيب . وما يومئ به من ادعاءات .. ليقل ما شاء فإن الحقيقة واضحة يعرفها الجميع ، وهو نفسه - برغم مكابرته - يعرفها جيدًا ..

وظلت «مالفن» فترة طويلة تبذل الجهود تلو الجهود ، وتبعث بالرسائل تلو الرسائل . ولم تستطع مع ذلك أن تفعل شيئًا يتقدم بها نحو حل المشكلة ، ولم يكن تفري نائمًا ، كان يحاول - كالعهد به - أن يستغل الفرص التي تسنح ويتابع رسل «مالفن» ، ويجمع المعلومات عن إياسو وعن خط تنقلاته وصلاته ببعض القبائل والمدن ، كان يرسل إليه عيونه وجواسيسه كي ينضموا إليه ، ويظهروا له ولاءهم وانضمامهم إليه ، واستطاع تفري أخيرًا أن يحاصر إياسو في إحدى المناطق النائية ، على إثر خديعة ماكرة خبيثة ، وبعد معركة قصيرة ، وجد إياسو نفسه محاصرًا برجال «تفري» . وغدارته خاوية من الطلقات ، وعشرات الأيدي تقبض عليه ، وتضع في يده الأغلال ، وظهر تفري من بعيد ، وأخذ يقترب من إياسو وهو يبتسم ابتسامته الماكرة الصفراء ، وقال تفري ونبرات صوته تنضج بالشماتة : «الآن انتهت المعركة ..»

- «لم تنته بعد أيها الخبيث ..»

- «إنك دائمًا تسيء إليّ ..»

- «لتعلم يا تفري أن المعركة الكبرى لا ترتبط بك وبي وحدنا .. إنها صراع أزلي بين الحق والباطل .. معركة مبادئ يا تفري ، إنك لم تحقق نصرًا نهائيًا بعد ، لقد استطعت أن تسرق النصر الظاهري ، وتستولي على الأرض ، واستطعت يا تفري أن تكتم أصوات الأحرار ،

وأن تنشر الإرهاب في كل مكان، واستطعت أن تأخذني أسيرًا، لكن الشعب في صمته أعلى هديرًا مني ومنك، والشعب برغم صمته لم يزل صامدًا مترقبًا ينتظر اللحظة الحاسمة، لقد أعلن الشعب رأيه الحقيقي فيك وفيّ، وأنت تعرف هذا الرأي، ولكنك تتجاهله، إنك يا تفري تتمسح في الدين، وتجعل منه ستارًا لأطماعك، أنت تعلم ذلك .. لكن الدين براء منك ومن أفعالك، الدين يا تفري – أي دين – يجعل الأمر شورى، ويعترف بإرادة البشر ويقدس حرياتهم وآراءهم .. والدين يا تفري ليس فيه تأكيد للخداع والمكر والكذب والإرهاب، ولا يبيح إراقة الدماء من أجل أغراض دنيوية تافهة .. والدين يا تفري لا يقرك على تحالفك مع الاستعمار عدو الله وعدو الشعوب .. والدين يا تفري لا يقرك على إذلال البشر، وإدخالهم في عقيدتك على الرغم منهم ..»

قال تفري مقهقهًا: «دائمًا تتحدث عن الله في أوقات الهزيمة والضياع ..»

– «كنت أتحدث دائمًا يا تفري لأني أؤمن به عن يقين ..»

– «إنك تجيد الخطب والوعظيات لا غير ..»

– «وأجيد يا تفري منازلة الظالمين ..»

قال تفري في سخرية: «هذا واضح جدًا. إنك لم تزل تتحدث عن النصر، على الرغم من الأغلال والسلاسل التي تشل حركتك .. كان رأيي فيك دائمًا أنك مثالي حالم، لا تصلح للحكم .. الدراويش لا يصلحون للحكم يا إياسو أيها الأخ المبجل ..»

كظم إياسو غيظه .. وسدد إلى تفري نظرات نارية، وقال: «ليس لديك رصيد من القوة الروحية تحمي به أمتك، إن بلادنا لن تثبت أمام أية قوة عادية: فأنت تربي جيلًا من العبيد، والعبيد لا يحققون نصرًا ..»

– «لم تزل تحلم يا إياسو، هؤلاء العبيد هم الذين حرروا الحبشة من انحرافاتك وتسلطك ..»

- «قل ما شئت، فتثبت لك الأيام ما أقول.. لقد شوهت أنت ورفاقك مبادئ الدين، ومفاهيم النصر، وأفسدت معني الحرية والإخاء والوطنية ... قد تكون حققت نصرًا سريعًا، وقد أكون أنا لاقيت الهزيمة، لكن الذي يؤلمني هو محاولة سحق المعاني النبيلة في حياة الإنسان الحر الشريف.. والمعركة لم تنته بعد يا تفري ..»

هز تفري رأسه، وقال: «أنا لا أنظر إلى بعيد، ولا أحلم بالمثاليات، وستذهب أنت الآن إلى السجن، عندئذ ينتهي كل شيء.. حسنًا لتتذكر جيدًا أنني لن أقتلك.. فأنا لا أحب سفك الدماء، ألم تزل مصرًّا على اتهامي بالقسوة؟؟ ..»

ثم التفت إلى الحراس وصاح في صرامة: «خذوه إلى السجن.. يجب أن تحيطوه بالحراسة المشددة ..»

ولم ينس تفري، أن يبرق فورًا إلى الكنيسة وعلى رأسها الأب ميتاوس، ويخبرهم بنجاح خطته، وانتهاء مقاومة إياسو إلى الأبد، والقضاء على الرمز الحي الذي كان يؤرق الطامعين.. القضاء على إياسو.

ودقت الطبول والأجراس مستقبلة البطل الظافر تفري، وأقيمت الزينات والأعلام، وترنم الرهبان والقساوسة بصلوات الشكر لله، بينما جلست «مالفن» في قصرها حزينة باكية: «ألا ترحمني يا تفري؟؟»

- «لقد استطعت أن أنقذه من حبل المشنقة»

- «السجن أفظع من الموت يا تفري ..»

قال تفري ساخرًا: «سيجد في السجن فرصة طيبة للتفكير والتأمل وعبادة الله.. السجن خلوة الصالحين والأطهار يا مالفن».

- «لا يصح أن تسجن إمبراطورًا لم يسئ إليك شخصيًا، فضلًا عن أنه صهرك ..».

قهقه تفري ساخرًا، ثم كشر عن أنيابه وصاح: «كفي عن هذا الهراء .. إنني أمقته .. وأمقتك أنت أيضًا ..»

شحب وجهها .. وهتفت في رعب: « ماذا؟؟ أنت لست في وعيك يا تفري».

- «إنني أعلم جيدًا أنك تكرهينني، وتتمنين زوالي، وكذلك كان أبوك وأخوك .. إنني لن أزول .. أتفهمين؟؟ لن أزول .. أنا باق هنا لأحكم وانتصر، وأقضي على جميع أعداء المسيحية .. إنني أتكلم بصراحة، وأفصح عن نواياي بطريقة جديدة عليك .. لقد تعودت مني أن أعمل في هدوء، وأن أعبر عن نواياي بطريقة مخالفة .. والآن لقد انتهت المعركة، ولم يعد هناك من سبب لإخفاء نواياي .. لن يخرج أبوك ولا أخوك من السجن .. وأنت!! أنت أيتها الملعونة .. لا أريد أن أرى وجهك بعد الآن .. فلتعيشي في هذا القصر كأحقر خادمة، حتى يقضي الله أمرًا .. إنني أكره أن أسمع اسم إياسو أو ميكائيل .. لا ترددي هذه الأسماء أمامي مرة ثانية وإلا .. وإلا قتلتهما .. إن كلمة واحدة كفيلة بوضع حد لكل هذه المهازل ..»

شهقت مالفن باكية، وجثت لدى قدميه، وقالت ضارعة: «إفعل بي ما شئت يا تفري .. لكن ارحمهما .. إنني أعرف جيدًا مدى نفوذك .. أنت قادر على فعل أي شيء في هذه البلاد ..»

ركلها بقدمه ومضى مغبر السحنة، لم يرق لدموعها وآهاتها وتوسلاتها ..

ورمقته وهو يتوارى عن الأنظار: «أيها المقيت الملعون .. لم يكن يناسبك سوى أن تحكم غابة أنت لا تحب الله ولا الشعب ولا الكنيسة .. بل تحب نفسك .. لقد حاولت جاهدة أن أكبح جماح نفسي، وأن أضغط على عواطفي، وابتسم لك، وأضرع إليك. لعلي أستطيع أن أخفف من أحقادك وقسوتك، ولعلي أنجح في إنقاذ أسرتي من براثن غدرك ..

لكنك كالصخرة التي لا تنبض بقطرة واحدة .. لتذهب ملعونًا في الأرض وفي السماء ..»

ومات ميكائيل مسمومًا في سجنه .
وماتت مالفن مسمومة في قصرها ..
وصدرت بيانات مقتضبة عن كل منهما ..
وتهامس الناس، تحت أسقف المنازل، وخلف ستائر الليل الحالكة السواد، ولم يستطع الهمس أن يتصاعد أو يعلو .. إن «تفري» الشيطان لا يرحم .. ولم يبق إلا إياسو خلف الأسوار، يحيا بين آمال الماضي، وأحلام المستقبل الغامض، وآلام الحاضر الحزينة . . أنه يحيا بين كلمات الله، مستغرقًا في عبادته .. وحيدًا صابرًا .. لكن اسمه على كل لسان .. لم يزل الأغنية الشجية التي ترف على شفاه المعذبين والمضطهدين ...



الفصل ١٨

وظل إياسو في سجنه سنوات طويلة، لقد استشرى نفوذ تفري في حماية أصدقائه الإنجليز والفرنسيين، وفي حماية الكنيسة ورجال الدين المتعصبين، كانت «زوديتو» خالة إياسو، وزوجة الرأس «غوغسا» - أحد حكام المقاطعات - كانت زوديتو هي الإمبراطورة ولا يعرف الناس عنها في الحبشة شيئًا ينكر، يرون صورتها، ويقرأون بعض المراسيم بتوقيعها، لكنهم على يقين أنها لا شيء على الإطلاق، إن ولي العهد وقائد الحبشة تفري هو السلطة الفعلية التي تعبر عن إرادة المستعمرين ورجال الدين المتعصبين، واستغل تفري فرصة الثقة المتاحة له، ورضاء الأجانب والكنيسة عنه، في القضاء على مناوئيه، والتمكين لسلطانه بجمع الأتباع، وإعطاء المناصب الحساسة لمن يثق فيهم، وإغداق المنح والهبات على من يشاء من أنصاره ومؤيديه ...

لقد خفت صوت إياسو خلف أسوار السجن العتيد عام ١٩٢١ حتى عام ١٩٣٠. واستطاع تفري أن يقيم حول منفى إياسو ستارًا كثيفًا من الصمت والغموض والرعب، وظن أن الإمبراطور السجين قد انتهى، وأنه لا داعي لقتله، بل إن ذلك السجن الرهيب؛ أبشع من الموت نفسه.. لكن تفري وقوته وسلطانه وإرهابه لم يكن ذلك كله قادرًا على الوقوف موقف التحدي في مواجهة القدر الغلاب.. كانت «زوديتو» هي الإمبراطورة اسمًا لا عملاً..

وكانت تدرك ذلك، وتشعر بمرارة قاتلة، لكن ماذا تفعل؟؟ لشد ما تكره هذا الملعون تفري، إنه هو السبب في جلوسها على كرسي العرش، لكنه أخذ منها بالشمال ما أعطاه لها باليمين، إنها تأتمر

بأمره وكأنها وصيفة من وصيفات القصر الإمبراطوري وليست صاحبة السلطة العليا الحقيقية في البلاد، وكان زوج الإمبراطورة «الرأس غوغسا» يكاد ينفجر غيظًا، إنه يرى زوجته مجرد ألعوبة في يد تفري، ليس في مقدورها أن تحسم أمرًا، أو تبت في مشكلة من المشاكل، وظل غوغسا يكتم غيظه، ويداري أساه لسنين طويلة، انتظارًا للحظة الحاسمة التي يستطيع فيها أن يرد لزوجته الإمبراطورة سلطتها الشرعية، وذات مساء قال غوغسا لزوجته زوديتو: «إلى متى نظل مثل هذه المهزلة التي يخرجها تفري؟؟ لقد أصبحنا أضحوكة للشعب، نحن لا نملك من السلطة إلا اسمها، بل إن سلطاتك الرمزية كإمبراطورة مهددة هي الأخرى بالضياع، إنني لا آمن مكر تفري».

قالت زوديتو: «إنني أتعذب مثلك ولا أعرف أين السبيل، إنني أعيش كما ترى فيما يشبه السجن، نحن لا نختلف يا غوغسا عن إياسو المسكين المظلوم، إنني أشعر الآن بأني خنت إياسو حينما وافقت على تولي منصب الإمبراطورة، فلو أني رفضت لوضعت الملعون تفري في مأزق، ولربما عاد إياسو عند ذاك إلى منصبه الشرعي في البلاد ..»

قال غوغسا: «يجب أن نبحث عن حل».

– «إنني متفقة معك، لكن كيف؟؟»

– «ألم تتدارسي الأمر مع رجال الكنيسة».

– «إنني حائرة يا غوغسا، تارة أراهم يؤيدونني ويسخطون على تفري، ويبدون التململ من تسلطه وتحكمه، وتارة أخرى أشعر أنهم قد عقدوا معه حلفًا غير مقدس ... لا فائدة ترجى من وراء الكنيسة عندنا إنها مؤسسة ضالة مضلة، يعميها التعصب، وتحجب الملذات عنها الرؤية .. نحن نعيش مأساة بشعة، لا نرى خلالها بصيصًا من النور ..»

قال غوغسا : «لم لا نحاول كسب تاييد الإنجليز والفرنسيين؟»

– «لن تكون عروضنا يا عزيزي أشد إغراءً لهم، لقد قدم لهم تفري كل ما يريدونه من بلادنا، وأثبت لهم إخلاصه ووفاءه، إن له مكانة كبرى بينهم، ونحن في الواقع لا نستطيع منافسته ..»

وأخذ غوغسا يفكر ثم قال : «والجيش يا زوديتو؟؟»

– «لا أمل فيه»

– «ولماذا؟؟»

– «إن كبار ضباطه من أصدقاء تفري، وقد أغدق تفري عليهم المنح والرتب، بالإضافة إلى أنه ملأ الجيش بالجواسيس والعيون. وبث فيه الرعب ... لقد اتبع كل سبيل للسيطرة على الجيش .. إن تفري لا يفكر إلا في التمكين لنفسه بشتى الوسائل، ولا يضيع لحظة واحدة في غير ذلك ... إنه يضحي بأي شيء لكي يثبت دعائم سلطانه، هل نسيت أنه قتل زوجته؟؟»

– «ماذا نفعل يا زوديتو؟؟ يجب أن نتحرك. مستحيل أن نرضى بهذا الهوان .. إن الشعب يسخر منك .. أتفهمين؟؟»

– «يؤسفني أن أقرر ليس أمامي بصيص من نور ..»

سدد إليها غوغسا نظرات حادة وقال : «بل أمامنا باب لم نطرقه بعد»

– «ماذا؟؟»

اعتدل غوغسا في جلسته، وتلفت يمنة ويسرة في تحفظ، على الرغم من أنه يجلس مع زوجته وحدهما في غرفة مغلقة، ثم أخذ يشرح لها خطته .. إن الشعب لم يزل يحب إياسو لدرجة العبادة، في الوقت الذي لا يحظى تفري بينهم بغير الحقد والمقت .. وشرح لها كيف أن قوى الشعب ذخيرة لا تنفد ولا يغلبها غالب، لأنها طاقة بلا حدود، لا نهاية لها، ولا شك أن انقلاب الشعب ضد تفري قد يغري الجيش بمعاداته، وقد يجعل الكنيسة تعلن غضبها عليه، والأجانب

دائمًا يقفون إلى جوار القوة الحقيقية إذا ما سقط عملاؤهم، ويحاولون إنقاذ ما يمكن إنقاذه، والحفاظ على البقية الباقية من مصالحهم، فإذا رأى الأجانب انهيار تفري، أجهزوا عليه وناصروا أعداءه، إنهم ينظرون إلى بعيد ..

وقال غوغسا: «أي عزيزتي الإمبراطورة المسكينة، إن لدي جيشًا لا بأس به. وسأعلن على الملأ خلع تفري، وأطالب بإعادة إياسو صاحب الحق الشرعي إلى كرسي الحكم، وإنني واثق أن الملايين من أبناء الشعب سينضمون إلينا، وستندلع ثورة كبرى تحطم تفري وأذنابه، وتعيد الأمور إلى نصابها ..»

قالت زوديتو: «إنها مغامرة خطرة يا غوغسا ..»

– «لن نصل إلى غاياتنا إلا بارتكاب المخاطر، ولو لم يفعل تفري ذلك من قبل لما استطاع زحزحة إياسو .. وإن الخوف الكامن في قلوبنا سوف يؤدي إلى الضياع القاتل .. ماذا ننتظر يا زوجتي؟ هل تأملين أن يثوب تفري إلى الحق، ويهبك سلطاتك الحقيقية وأنت هكذا لا تملكين شيئًا من السلطة الفعلية، إن تفري لا يفهم الأصول أو الدساتير، المنطق الوحيد الذي يفهمه تفري هو منطق القوة .. القوة وحدها، بالقوة حقق ما يريد، وبالقوة هزم المثل العليا، ورفع الحقارة والضعة والنفعية إلى كرسي الحكم .. فالقوة وحدها هي اللغة التي يفهمها تفري ..»

– «إنني أشعر بالخوف يا غوغسا»

– «زوديتو .. إنني رجل .. أكثر رجولة من تفري .. الخوف عار يا زوديتو .. الموت أهون منه عندي ..»

وصمت برهة ثم عاد يقول: «إذا استطعنا أن نقهر الخوف في نفوسنا فلسوف نقهر تفري ومفاسده لقد التزمنا الحكمة والتريث سنين طويلة حتى يرعوي تفري، لكن لا فائدة .. إن الحل الآن يفرض نفسه .. السيف هو الذي يحسم الأمور ..»

وأخذ يفكر، ثم استطرد: «وقوتنا لن تقوم على أسس غاشمة

عمياء، إنها تستند إلى الحق والشرعية ونحن ندعو إلى الحرية والعدالة والأخوة، وترك التعصب والظلم .. إنها نفس المبادئ التي نادى بها إياسو، واستجاب لها الشعب .. ومن البديهي أن نحاول استمالة الكنيسة والأجانب، إن أي تأييد منهما سيفيدنا .. لكن يجب ألا تكشف لهم عن خطتنا، وألا نفاتحهم بالأمر إلا أثناء نشوب المعركة .. إن النصر المبدئي الذي سوف نحققه يسهل مهمتنا ..»

لم تدر «زودينو» كيف تجيب، إنها ناقمة على وضعها الخائف المضحك، وناقمة على استبداد تفري وأطماعه الخفية، وهي تؤمن أن القوة وحدها هي القادرة على حسم الأمور، وتحطيم تفري، لكنها لا تستطيع أن تمنع نفسها من التفكير في نتيجة المعركة إذا ما حاقت الهزيمة بغوغسا ... يجب أن تفكر في احتمالات الهزيمة والنصر وإلا كانت حالمة، عارية من الخبرة والتجربة والمنطق ..

وأخيرًا قالت زوديتو: «أيها العزيز غوغسا .. إنني أؤمن بضرورة الحركة والتضحية، لكن هذا لا يمنع أن يعبث الخوف بقلبي .. إنني امرأة وزوجة .. وتفري ملعون خبيث لا يرحم .. ومع ذلك فلتسر على بركة الله ..»

انتشرت دعوة «غوغسا» في كل مكان. وزحف بقواته المحدودة في البداية، وسرعان ما انضم إليها عشرات الألوف، أتوا من كل مكان، حاملين السلاح، عاقدين العزم على النصر أو الموت، هاتفين باسم «إياسو» ... لقد عاد اسم إياسو ليتردد في كل مكان .. ,على كل لسان .. إياسو الطيب الصابر، الذي يقضي أيامه ولياليه وراء القضبان صابرًا عابدًا لله .. لقد عادت أغنيات الأمل على الشفاه مرة ثانية .. إياسو .. إياسو .. يهتف الفلاحون القادمون من القرى والمزارع، والرجال الذي يخترقون الغابات والبحيرات، والمواطنون المنحدرون من الجبال والتلال .. إياسو ... إياسو .. وأحيط بتفري، أن غوغسا يتقدم وينتصر، والكنيسة يمزقها الرعب والهلع، والعاصمة «أديس أبابا» تنام وهي تغلي وترتعد .. الانتظار القاتل

يلف الجميع .. وغوغسا يتقدم .. بينما تفري يجري كالمحموم باحثًا عن حل .. الحشود الهائلة التي أقام صفوفها لم تستطع وقف الزحف الطاغي .. المدافع والبنادق والقنابل لم تعد تجدي نفعًا .. إنها تقتل أو تجرح بعض الرجال ، لكن الزحف لا يتوقف ... الأجراس تدق في ذعر مجنون داعية الشعب للجهاد المقدس ضد غوغسا ، وإياسو السجين وزوديتو الماكرة .. لا فائدة .. إن تفري لابد أن يجد حلًا سريعًا حاسمًا .. وهرول إلى أصدقائه الفرنسيين .

– «الحل .. الحل .. إن العاصمة ستحاصر عن قريب ، وسيعود إياسو .. إياسو أيها الأصدقاء خصمكم اللدود ..»

قال القنصل الفرنسي : «نعلم ذلك ..لكن هذه مسألة داخلية ..»

– «بل مشكلة المسيحية في كل مكان وزمان ..»

– «يا تفري هذا الزحف لن يوقفه إلا شيء واحد ..»

قال تفري في لهفة : «ما هو يا سيدي؟؟»

– «سلاح الطيران الفرنسي ..»

– «ما الذي يمنع من استعماله ..»

– «ذلك مشكلة كبرى يا تفري .. نحن نعطيك المال والسلاح والخبرات ، أما أن نشترك بقواتنا علانية ، فهذا قد يثير شعبكم ، ويلصق بك التهم شخصيًا ، فضلًا عن أن الدول الأخرى قد تعتب علينا ..»

قال تفري : «أنتم منا ونحن منكم ، إن عودة إياسو مأساة عالمية .. ثم ما هو الشعب؟؟ إنه يؤيد المنتصر دائمًا ، لن يتكلم عن اشتراككم وطيرانكم بعد أن ينهزم غوغسا وإياسو .. إنني أعرف شعبي جيدًا .. وأعرف الوسيلة التي سكته بها ، إن انتصارنا في هذه المعركة سينهي كل معارضة إلى الأبد .. استحلفكم بالله أيها السادة أن تصدروا أوامركم بتحرك الطيران الفرنسي .. إنه الحل الوحيد ..»

لم يمانع الفرنسيون في ذلك ، لكن لابد أن يكون لذلك ثمنه ، مزيد

من القواعد للقوات الفرنسية، ومزيد من التعاقدات والتجارة والاتفاقات الثقافية. مزيد من المبشرين والبعثات الفنية والعسكرية والاستثمارات ... وأشياء كثيرة أخرى طلبها الفرنسيون.. ,تفري يقبل.. إنه يبيع نفسه ووطنه وخيرات وطنه كي يسحق غوغسا وإياسو.. لكي يبقى وليًا للعهد.. وقائدًا عامًا للجيش.. فليبق تفري ولتذهب الكرامة والغيرة الوطنية والاستقلال والحرية إلى الجحيم..



في إقليم «أسمرة»، في عام ١٩٣٠، وقوات الشعب وغوغسا يسحقون بأقدامهم فلول تفري، ظهرت في الجو الطائرات الفرنسية بقيادة القائد الفرنسي «اندريه ماييه».. إنها أول معركة تظهر فيها الطائرات في سماء الحبشة، وانهالت المتفجرات الفرنسية على الحشود المنتصرة المتقدمة، وأدار غوغسا ورجاله رؤوسهم باحثين عن الموت المفاجئ. كانت السماء ترعد، واللهب والدخان والغبار تملأ الجو، وتلفت غوغسا حواليه، فوجد رجاله يسقطون بالمئات.. لم يكن تفري وحده.. جاء ومعه الطائرات الفرنسية تسحق مقاومة شعبه.. إنه العار.. لقد ضاعت الحبشة، وضاع مجدها.. لتذهب كل المعاني والقيم الجميلة إلى الجحيم، وليبق الخائن الأوحد تفري..



أحاط الخونة «بغوغسا»، ثم أمسكوا به..

وقدم تفري كعادته.

– «أيها المخدوع، أو لم يكن يكفيك أنك زوج الإمبراطورة، وحاكمًا لمقاطعة، ماذا كنت تريد؟»

قل غوغسا المرهق الجريح: «أردت أن ينتصر الحق، وتعود

الحرية، ويذهب المستعمرون إلى بلادهم، ويعود إياسو صاحب الحق الشرعي إلى عرشه ..»

– «لم تزل كالعهد بك يا غوغسا قصير النظر، أرعن التصرفات ..»

– «أنت لم تنتصر يا تفري ..»

قال تفري وهو يقهقه: «وأنت؟؟ هل تضع على جبينك أكاليل الغار؟؟»

– «بل انتصرت الطائرات .. انتصر الفرنسيون حينما رموا بالنيران على الثوار من شعبنا العظيم .. هؤلاء المرتزقة لا يحاربون بلا قيد .. أنت تعرف يا تفري الخائن الثمن الذي قدمته لهم .. لقد قدمت وستقدم لهم دائمًا – الكثير من كرامة شعبك وحرياته. اذهب ملعونًا ..»

ثم بصق في وجهه، فارتعدت فرائص تفري، وساد الشحوب وجهه وصرخ كمجنون، وقال في حنق: «هذه البصقة ستكلفك حياتك ..»

والتفت تفري إلى جنوده قائلًا: «اذبحوه كما تذبح الشاة ... وهاتوا رأسه كي أقدمها هدية للإمبراطورة المسكينة زوديتو ..»

ومات غوغسا مذبوحًا .. وألقيت رأسه عند قدمي تفري.

وفي اليوم التالي أعلن «تفري» وفاة الإمبراطورة «زوديتو» .. لقد ماتت بالسم .. الطريقة المفضلة لدى تفري ..

وأعلن تفري نفسه على الفور «إمبراطورًا للحبشة» باسم «هيلاسيلاسي» سبط يهوذا، وظل الله على الأرض ...

وبقي إياسو الطيب في سجنه البعيد: يحيا في الصمت والظلام، لا يكف لسانه عن ذكر الله ....



الفصل ١٩

عشرة أعوام ونصف.. يا لها من مدة طويلة.. بين القضبان الصدئة القاسية، والجدران الصلدة التي تآكل طلاؤها القديم، وأوجه السجناء الغلاظ الصامتين، وعدم معرفة أي شيء عما يجري خارج الأسوار اللهم إلا الشيء القليل.. وبعد عن الأهل والأصدقاء وأبناء الشعب المسكين.. عشرة أعوام ونصف قضاها إياسو بعيدًا عن المعارك والحركة والدعوة لمبادئه.. عشرة أعوام ونصف يمرح فيها «تفري»، ويدبر مكائده، ويسحق المعاني النبيلة، ويقرب المنافقين والنفعيين والخونة، ويحارب الأصلاء والأحرار، ويصب حقده الأسود الرهيب على رؤوس المسلمين وعلمائهم، لا لشيء إلا لأنهم مسلمون، وأنهم قد أحبوا إياسو وساروا وراءه في طريق الخير والحب والسلام..

لقد مات أبوه.. وماتت مالفن.. وكذلك خالته الإمبراطورة زوديتو وزوجها غوغسا، وذبح عشرات الألوف من الرجال المخلصين الأوفياء، إن إياسو يؤمن بالله وبشعبه، وكان يعلق كثيرًا من الآمال على انتفاضة غوغسا، لكن الفرنسيين أخلوا بميزان القوى، واستطاعت طائراتهم أن تحول نصر الأمة إلى هزيمة، وأن تجعل من تفري إمبراطورًا.. باسم «هيلاسيلاسي».. ظل الله في الأرض.. وما هو في الحقيقة إلا ظل للشيطان.. ظل أسود رهيب يغطي سماء الحبشة، فيحيل هضابها وغاباتها ومراعيها ومدنها وقراها إلى ظلام دامس.. وحياتها إلى ليل طويل أليم، مضطرب الأحلام.. مليء بالهول والأشباح.. إن الظل الأسود الرهيب يبسط ستائره الداكنة الثقيلة فوق القلوب والعقول، والإنسان والحيوان، ودمعت عينا «إياسو».. أين النصر؟؟ وأين إرادة الشعب المغلوب على أمره؟؟ لماذا

تسمح الأقدار لهذا الظل الأسود أن يوشح الوجود، ويعتصر قلوب البشر؟ إن همسات من يأس تتردد في روح إياسو المتعب المكدود، لقد طال الصبر والانتظار، وازداد عدد الضحايا، وهيلاسيلاسي اللعين، يدوس الأشلاء والجماجم والمقدسات، ويصعد .. ويصعد إلى أعلى .. ورؤوس الشعب الذليل تنحني، وتعفر جباهها بتراب نعليه .. لقد ماتت المعاني الشريفة في قلب البشر لطول القهر والعذاب والحرمان .. فهل استكان الناس للذل، ورضخوا لليأس والخوف، ولم يعد هناك أمل، أتلك هي النهاية؟؟ مستحيل أن يحدث ذلك، لقد طال الأسى والعذاب، هل من الضروري أن يطول بقاء الأشقياء، وأن يصعدوا القمة تحيط بهم الخبائث والموبقات؟؟ إن إياسو يعرف أن للظلم نهاية .. لكن قلب الإنسان المحترق بين حناياه يتمرد .. يثور .. يدعو الله في حرارة وتشبث .. أيظل إياسو طول عمره رهين محبسه؟؟ إنه شيء أفظع من الموت، لكم يود أن يخرج، وأن يلقى منيته في ميدان جهاد حاد عاصف. هو يعلم أن الصبر على بلاء السجن جهاد ... لكن لحظات التعاسة التي تمر به لحظات قاسية بشعة، إن ساعة منها تساوي عمرًا بأكمله، وإياسو يعترف أنه في بعض الأحيان، يتأرجح بين الشك واليقين، ويتبرم بالدنيا والحياة، ويتمنى ألا يكون قد جاء إلى هذه الحياة القاسية المريرة، وقد يصل شكه وتمرده إلى درجة العتاب للأقدار، وسرعان ما يثوب إياسو إلى رشده، ويذرف دموع الندم، ويهتف من أعماقه «غفرانك يا رب .. فلترحم ضعفي .. إنني إنسان محدود الطاقة .. هكذا خلقتني .. لكن حياة السجن ميتة لا طعم لها .. إنني أقرأ القرآن فينشرح قلبي، ويتسع ضيق السجن، ويتحول إلى جنة وارفة الظلال، وتفيض روحي بالأمل والإيمان .. لكن الأفكار يا إلهي قد تشتط بي، وتجرني إلى الضحايا .. أبي الذي قتلوه، ومالفن المسكينة التي حاولت إقناعي ذات يوم بانفصالها عن هذا الشقي فرفضت ... ورفاق الجهاد في الأغوار

والمزارع والجبال .. ثم أفكر في هيلاسيلاسي. وقد انتصر بخبائثه ومكائده الشيطانية.. ماذا أقول؟؟ إن جسدي أحيانًا يلتهب بالثورة والحقد، لكني أشعر بعجزي.. إن العجز قيد ثقيل يشدني إلى الأرض وعذابها، وينهك قواي، فتعصف الحسرة بروحي، وتحيل ليلي إلى أرق، وآمالي إلى أحزان وإيماني إلى عجز مرير. . ما أتعس العاجزين إنني أمد بصري فلا أرى إلا الأسوار العالية، وطيورًا تمرح في السماء.. ما أسعد الطيور وجوه الحراس المكتئبة التي قد خاصمت الضحك، ونسيت المسامرة.. إنهم يؤدون واجبهم في جمود وجفاف.. هل أصبح الشعب على هذه الصورة الميتة المؤسفة؟؟»

في صباح باكر، سمع إياسو وقع أقدام الجندي خارج الزنزانة، إن إياسو قد تعود على ذلك طوال السنين الفائتة، ها هو الطاهي يحضر طعامه الرديء، والذي يذكره دائمًا بأيام خلت.. القصر.. الوصيفات.. الطاهي النظيف الثياب، وألوان الطعام المختلفة. . لم يكن كل ذلك يلفت نظره من قبل.. لكن حياة السجن وسماتها الخاصة تجعله يعقد المقارنات، ويستعيد الذكريات..

وفتح الباب. نفس الوجه الجامد الذي يراه كل صباح، ونفس الكلمة: «خذ طعامك»

ويفاجأ إياسو وهو يقضم الرغيف، بورقة مدسوسة فيه: فيخطفها في لهفة. كلمات قصار، قد شدت أعصابه، وجعلت الدم يتدفق في عروقه قويًا هادرًا، إن الحياة تدب في هيكله المهدم من جديد، هذا هو صوت الشعب، إنه لم يمت، لم يزل حيًا يصارع عوامل الغدر والفناء والذل.. إنه يعرف صوت شعبه: «إياسو.. كن متيقظًا، وعلى أهبة الاستعداد قبل الفجر بحوالي الساعة.. لقد حانت ساعة خلاصك من القيود»

تلك هي الكلمات التي قرأها إياسو.. لقد رقص قلبه في صدره، لسوف يعود إلى الحياة من جديد، ويثب فوق السفوح حاملاً مدفعه،

يتغنى بالحرية والجهاد، ويقود الجموع إلى معارك البطولة والخلاص، ويبعث الرعب والغيظ في قلب هيلاسيلاسي الطاغية.. الظل الأسود المقيت.. مرحبًا بليالي النضال.. وتمتم إياسو «سامحني يا إلهي.. إن اليأس كفر، والشك موت، لقد آمنت أن التغير طبيعة الوجود.. الليل يعقبه النهار، إنها بديهيات، لكن عقولنا المثقلة بالمتاعب والاضطهاد الطويل كثيرًا ما تنس البديهيات.. ترى من هؤلاء الرجال الذين يركبون الأخطار، ويضحون بأنفسهم من أجلي؟؟ إنهم لا ينسون.. هذا شيء رائع.. مرحبًا بليالي النضال.. وبصحبة الأحرار ..»

وعاد إياسو يفكر بعد فترة، ألا يمكن أن تكون هذه ألعوبة جديدة من ألاعيب هيلاسيلاسي؟؟ إن جعبته لا تنفد من المكر والخداع والحيل الشيطانية، لكن لماذا يلجأ لكل هذه الأساليب الملتوية؟؟ إنه يستطيع أن يقتلني بإشارة من يده، هذا ما يحيرني، لماذا يتركني حتى الآن؟؟ هل وراء ذلك سر لا أعرفه؟؟ آه.. إن حياتي قصة دامية مشحونة بالأحداث والذكريات.. كانت بنت حاكم هرر أميرة فاتنة الحسن، بارعة الذكاء، سامية الخلق.. عقلها قادر على أن يسوس أمة بأسرها.. عندما تزوجتها شعرت أن روحي قد اخضوضرت وأشرقت بالزهر والياسمين والأريج العطر.. كانت حياتي معها على الرغم من قصرها نغمًا حالمًا فذًا... لماذا أتذكرها الآن يا إلهي، إن صورتها كلما خطرت كلها على بالي، عاد إليّ الماضي الجميل مجسمًا نابضًا بالحياة.. يخيل إلي عندما أذكرها أنني على وشك أن أدق الجدران بقبضتي ورأسي وقدمي لأشق لي طريقًا إليها.. إلى الحياة.. إلى الناس.. إن كل ذلك شيء واحد.. هي والحياة والناس، واللافتات التي تحمل شعاراتي وأمنياتي الغالية.. كثيرًا ما تمنيت أن أكون فلاحًا يشق الأرض بفأسه، ويرعى الأبقار، ويمضي حافي القدمين، لا يعلم عن الدنيا إلا قريته وأبقاره ومزارعها المحدودة».. ليته لم

يكن إمبراطورًا في يوم من الأيام .. أشياء كثيرة تتوارد على ذهنه في هذه الأوقات الحرجة الحاسمة .. لكن لماذا يفكر في كل هذا الآن .. إن الرجال سيأتون بعد منتصف الليل .. سيشقون السياج الصلد الذي أقامه «هيلاسيلاسي» حول السجن .. وسيختطفون فارس الأمل إياسو .. ويبدأ النضال من جديد .. فلتصمت أجراس البغي يا هيلاسيلاسي اللعين .. وليسقط عهد الثعالب والذئاب، ولتسقط سياسة الوحوش الضارية .. ولتشدوا أغاني النضال على الروابي والسهول .. والله أكبر .. لسوف يأتي الرفاق، ولسوف أخرج للشارع والحياة والناس، ستنقلب الحبشة رأسًا على عقب. وستعود معركة الأفكار من جديد .. ستشتعل العقول بحثًا عن الحقيقة. صلى الله عليك يا راعي الغنم .. كيف صارعت الطغيان وأنت في حفنة صغيرة مضطهدة من الرجال الصابرين، وحولكم الألوف يحملون الغدر والحراب والمكيدة .. صلى الله عليك يا محمد .. أيها المثل الأعلى ..

الباب يفتح، وأيد حانية تأخذ بذراع إياسو، ويهرولون به إلى الخارج، الحراس المقيدون بالحبال، يزمجرون وقد كممت أفواههم، ونحيت عنهم أسلحتهم، ويعبر إياسو والرجال بوابة السجن الضخمة، ويمتطون الجياد وينطلقون إلى الفضاء العريض، والنجوم تلمع في كبد السماء، ونسمات رطبة تلامس الوجوه المحتقنة.

– «من أنتم؟؟»

قالها إياسو مرارًا دون أن يجيبه أحد، ولما بلغ الرجال مأمنهم، وأماطوا اللثام عن وجوههم، قال أحدهم: «نحن رجالك.. جئنا لننقذك من براثن الوحش الآدمي .. نحن نفكر وندبر منذ سنوات .. إن

الرجل الذي أحب شعبه ، وأحبه شعبه ، لا يصح أن يبقى خلف القضبان رهينة في يد الشيطان .. نحن رجالك يا إياسو الحبيب ..»

قال إياسو وهو يدقق النظر في وجوههم : لكني لا أعرف أحدًا منكم »

- «نحن نعرفك .. يا حامل لواء الحرية والتسامح والعدل على أرضنا الطاهرة .. حاربنا إلى جوارك .. ورأينا فيك القائد الهمام ، والأخ الرحيم ، والإنسان صاحب القلب الكبير ..»

هز إياسو رأسه في رضى وقال : « أجل .. يخيل إلي أنني رأيت هذه الوجوه من قبل .. لكأني أعرفكم من سنين طويلة ..»

قال أحد الرجال : «يجب أن تستريح أولًا .. إن لنا معك حديثًا طويلًا .. لابد أن نشعل الثورة من جديد .. لن يستطيع « هيلاسيلاسي » أن يلاحقنا بالطائرات الفرنسية مرة أخرى .. لسوف نشن عليه حرب العصابات ، سنكبده الكثير من الجهد والعنت ، ونحيل أمنه إلى خوف ، وسنذل كبرياءه ، ونعطيه درسًا لن ينساه .. هذا المأفون ما زال يقتل الأبرياء ، ويدمر قرى المسلمين عن آخرها ، ويستولي على ماشيتهم ، ويطردهم من أراضيهم ، ويهدم المساجد ، ليقيم الكنائس على أنقاضها باسم الرب يسوع ..»

وتلفت إياسو حواليه ، ما أحلى الحرية!!! لكأن الوجود بكل ما فيه كأس شهية لامست شفتي إياسو الظامئ ، إنه يريد أن يعانق كل شيء الناس والأشجار والجبال والحيوانات .. إن فرحة غامرة تملأ قلبه ، لم يعد يشعر بأثقال عنيدة تشده إلى الأرض ، إنه يخفّ ويخفّ .. حتى ليبدو له أنه يستطيع الطيران قرب السحاب! ما أحلى الحرية .. إنه لا يشعر بجوع ، وليس لديه رغبة في النوم ، يريد إياسو أن يعانق هؤلاء الرجال ، وأن يتحدث معهم حديثًا طويلًا لا ينتهي .. وهو يشعر برغبة جارفة في رؤية الأطفال .. لكم يحب هذه الطيور الحبيبة .. هؤلاء الأطفال عيونهم الصغيرة تنطق بالبراءة ، وابتساماتهم الصادقة تعبر

عن الطهر والوداعة . ويريد أن يرى الفلاحين منحدرين نحو حقولهم عند مطلع الشمس يسوقون أغنامهم وأبقارهم إلى الزروع الخضر .. يريد أن يرى الضجيج والحركة في الشوارع والطرقات، ويسمع نداءات الباعة ومشاجراتهم .. يريد أن يرى الحياة بكل ما فيها من ألوان .. لعنة الله على السجن .. إنه حرمان بل موت بشع .. إنه ليل طويل يطحنه العذاب والأسى ..

انقلبت العاصمة رأسًا على عقب، وأرغى هيلاسيلاسي وأزبد، وأصدر أمره، بالقبض على الحرس «المقبوض عليهم»، وقرر قتل من تسبب في فرار إياسو، ورصد المكافآت الضخمة لمن يأتي به حيًا أو ميتًا .. وساق آلاف الجنود لمحاصرة المنطقة التي نزل بها، وأخذ الجنود يضيقون الحصار يومًا بعد يوم، ويسحقون في طريقهم القرى والكفور، ويبذرون الرعب في كل مكان ...

وها هو إياسو – وقد شعر بأنه سيقع في يد أعدائه – يركب جواده وينطلق إلى بعيد، إنه لا يريد أن يجر الرجال معه إلى هاوية السجن السحيقة، وعند أحد المنافذ الجبلية أحاطت به قوات هيلاسيلاسي من كل جانب ..

عادت القيود ...

وعادت الأسوار العالية، والقضبان الصدئة ..

وأوجه السجناء القساة أولئك الذين خاصمت وجوههم البسمة، ونسيت حلاوة السمر والمرح ..

لم يعد للحياة معنى!! أيضع حدًا لحياته بيديه؟؟ حاشا لله!! ما هكذا يكون المؤمنون بالله وبمحمد عليه الصلاة والسلام، لسوف يعود إلى سجنه الجديد يحمل في قلبه الأمل، ويغذي روحه بالإيمان، ويقطع

الوقت الطويل في الدعاء والقراءة وذكر الله .. لقد نذر نفسه لله ، ومن ثم فلم يعد إياسو ملكًا لنفسه .

عاد الظلام والليالي الطويلة الحالكة السواد .

مضت تلك الفترة القصيرة التي قضاها في الخارج بعد هروبه مرور الحلم .. هل كان ما حدث حقيقة؟؟

قال له السجان : « تصور أيها الإمبراطور المسكين .. أن الناس في جميع أنحاء الحبشة لا يصدقون أن هيلاسيلاسي قد استطاع القبض عليك وإعادتك إلى السجن ، إنهم يقولون إنك لم تزل تجمع الرجال ، وتعد السلاح ، وتنتقل من مكان لمكان استعدادًا للمعركة الفاصلة ..»

وقهقه السجان في سخرية : « أنا نفسي كدت أصدق مزاعمهم مع أنك معي في السجن .. إنني آتي كل يوم لأنظر إلى وجهك كي أتأكد أنك أنت إياسو ، والناس لا يصدقونني ..»

واقترب السجان منه ، وأمسك بكتفه ، وهتف : « قل لي بحق العذراء هل أنت إياسو المسلم؟؟ »

ابتسم إياسو : « أنا إياسو .. أنا لست أسطورة ..»

– « أكاد لا أصدقك .. إن ثورات كثيرة اندلعت في كل مكان .. الناس في بلاد كثيرة ينتظرون قدومك .. لكنك هنا ، وسيطول انتظارهم ، ولن يلتقوا بك أبدًا ..»

شرد إياسو بفكره إلى بعيد وقال : « أنا هنا .. وأنا هناك .. ولن تستطيع قوة في الأرض أن تمنع لقائي معهم .. الأرواح جنود مجندة ..»

تلفت الحارس في ذعر وقال : « هنا وهناك؟؟ كيف؟؟ جيش من الأرواح؟؟ كيف .. لسوف أجن ..»

وفر الجندي مذعورًا ، وهو يضرب كفًا بكف ، وبعد لحظة عاد الجندي ليقول : « أي إياسو الطيب .. لا تخبر أحدًا أنني تحدثت معك ..

الأوامر صريحة، إن الحارس الذي يتحدث معك يكون مصيره العذاب الأليم والطرد من الخدمة، بالله لا تخبر أحدًا بذلك.. لم أستطع أن أمسك لساني، إن ما يقال عنك في طول البلاد وعرضها قد ملأني بالفضول الذي لا يقاوم ..»

وتمتم إياسو وهو يهز رأسه: «أتخشون الناس، والله أحق أن تخشوه؟؟»



الفصل ٢٠

في عام ١٩٣٥م، موسوليني يدق أبواب الحبشة بقبضته الحديدية، والقوات الإيطالية تزحف نحو الحدود مهددة مُتوعدة، وهيلاسيلاسي يستنجد بالحلفاء، لقد حانت لحظة الانتقام الإلهي .. هيلاسيلاسي يحشد ربع مليون جندي .. الشعب يهتف «إياسو .. إياسو» إنه رجل الساعة .. لقد استطاع الاستعمار أن يجعل من الإمبراطور الخائن عبدًا له! وهو بدوره أحال جيشه إلى جيش من العبيد .. إن الإيطاليين يزحفون ويبيدون جنود هيلاسيلاسي عن آخرهم ..

لقد فقد هيلاسيلاسي جيشه ...

وفقد ثقة الشعب منذ زمن بعيد ..

المعذبون الضائعون الأذلاء لا يستطيعون دفع العدوان ..

هيلاسيلاسي يتوثب كفأر مذعور ..

لقد ضاع كل شيء .. وهدير كالرعد يصم الآذان «إياسو .. إياسو» .. ويبتسم هيلاسيلاسي ابتسامته الصفراء الخبيثة، تلك التي تكشف عن أنياب الغدر والمكر والوحشية ...

وإياسو سجين في حصن «غراموليتا»، يتسقط الأخبار المحزنة، الحراس يركعون حوله، ويسكبون عبرات الندم ..

– «أي إياسو الحبيب .. لقد ضعنا .. ضاع كل شيء .. والطليان قد سحقوا كل مقاومة .. إياسو أيها الرجل الطيب .. إن الشعب كله يهتف باسمك. والطليان يرحبون بك .. لقد حانت ساعة الخلاص .. فاذكرنا إذا ما عدت إلى العاصمة مكللًا بالغار، واذكرنا إذا ما فرشوا لك الطريق بالورود والرياحين .. ودقت الطبول إيذانًا بانتهاء الليل الطويل ..»

بكى إياسو، وتمتم في أسى: «أأعود إلى العرش لكي أكون

ألعوبة في أيدي الطليان؟؟ ما الفرق إذن بيني وبين هيلاسيلاسي الذي حكم في ظل الحراب الإنجليزية والفرنسية!! لو قرر لي الخروج ، فلن أخرج إلى قصر الإمبراطورية .. إن رجالي هناك فوق السفوح وفي الوديان والمزارع الخضر .. ومن هناك نحمل السلاح لنخلص البلاد من العدو الجديد ..»

في ليلة سوداء عاصفة، يشوبها الحزن واليأس المرير ، قال هيلاسيلاسي : «أيها الرفاق الأعزاء ، لقد فقدنا كل شيء ، واحتل الإيطاليون جزءًا كبيرًا من الحبشة ، لقد خسرنا الحرب .. ولا أستطيع البقاء بعد ذلك ، كيف أبقى؟؟ إن الشعب يشعر نحوي بمشاعر غير ودية ، والطليان حاقدون عليّ لتعاوني مع الإنجليز والفرنسيين .. إذا بقيت فسأساق إلى السجن ، وسيخرج إياسو ليتوج إمبراطورًا على الحبشة من جديد .. لا .. لن أقبل ذلك .. لقد قررت الهروب إلى انجلترا ..»

وساد الحجرة صمت رهيب ..

وعاد يقول : «لكن هناك مهمة خاصة لابد من أدائها في مكان ما »

– « أين؟؟ » قالها أحد الرجال مستفسرًا :

رد « هيلاسيلاسي » في هدوء : « في غراموليتا ..»

– « غراموليتا؟؟ ليس لنا فيها شيء ، إنه حصن قديم لا قيمة له ..»

سدد إليه « هيلاسيلاسي » نظرات ثاقبة وقال : «لنا فيها إياسو ..»



عندما وصل «هيلاسيلاسي» إلى غراموليتا في موكب مسلح ضخم ، ذعر الناس والحراس ، وصاحوا في فزع «الإمبراطور ..

الإمبراطور ». لم يضع هيلاسيلاسي الوقت سدى، وقصد لتوه إلى حيث يقيم إياسو : « ها قد التقينا يا إياسو من جديد ..»

قال إياسو : «لقد ضيعت كرامة الأمة، وسحقت استقلالها بجهلك »

– « لا يصح أن تكلمني بهذه اللهجة يا صهري القديم .. إنه اللقاء الأخير بيننا، ألا تعلم أني قد عزمت على الرحيل إلى انجلترا؟؟ إن الطليان سيأتون إلى هنا عن قريب ..»

– « وما شأني بذلك كله ..»

– « أنت الإمبراطور المرتقب يا إياسو ..»

– « بل إنني خادم الشعب .. ولا أفكر إلا في حريته والدفاع عنها بكل ما أملك ..»

– «لن تستطيع ذلك يا إياسو ..»

– لماذا؟؟ إنني لا أرهب قوة الإيطاليين ..»

– «لن تستطيع ذلك لسبب آخر ..»

– «ما هو؟؟ »

– «لقد أصدرت حكمي عليك بالإعدام .. لن تعود إلى القصر إمبراطورًا ..»

قال إياسو باسمًا : «أنا لا يهمني الموت، ولا أفكر فيه، وإنما أفكر في المصير التعس الذي آلت إليه بلادنا .. أفكر في حماقتك التي أوردتنا موارد الضياع .. إن كنت يا هيلاسيلاسي تفر من الموت، وتترك شعبك المسكين يواجه الكارثة وحده، فأنا لن أفر .. ولن استسلم للطليان، ولن أقبل العرش تحت وصايتهم .. سأحارب .. الموت أو النصر ..»

قال هيلاسيلاسي في حقد : «بل الموت ..»

وأشار بيده ..

فانقض خمسة الرجال الأشداء – وأطبقوا على عنق إياسو المسكين .. كان إياسو يبتسم برغم احتقان وجهه، وجحوظ عينيه، لم

يتألم أو يتململ، وصرخ هيلاسيلاسي كالمجنون: «أطفئوا هذه الابتسامة من فوق سفتيه.. شجوا ذلك الجبين حتى يغرق الدم وجهه ..»

قال أحد الرجال وهو يتصبب عرقًا: «لقد مات يا جلالة الإمبراطور . . .»

- «أقتلوه مرة ثانية ..،ثالثة.. ورابعة.. أزيلوا جثته من أمامي.. خذوها إلى قبر مجهول بعيد.. بعيد جدًا.. لا يعرفه أحد.. هذه الأسطورة السمجة، يجب أن تختفي إلى الأبد، إن تخلصي من هذا الكابوس هو الذي خفف عني مرارة الهزيمة التي أصبنا بها أمام الطليان.. هذا المجنون إياسو يبتسم.. إنه لم يزل يبتسم.. كيف مع أنه ميت؟؟ لقد سمعته ينطق بالشهادتين.. كان شجاعًا أمام الموت.. كنت أظنه سيهوي إلى حذائي ليقبله ويسكب فوقه العبرات.. حسبته سيضرع ويلتمس العفو.. لكنه لقي حتفه وهو يبتسم.. عفروا وجهه بالتراب لعل هذه الابتسامة تختفي ..»

وأخذ «هيلاسيلاسي» يضرب الجثة بحذائه. ثم يتحول إلى من معه ويكيل لهم السباب واللكمات والركلات، وهم حائرون لا يدرون ماذا يفعلون..

وتمتم بعد أن شعر بإعياء شديد: «الآن ارتاحت نفسي، وشفيت غليلي ..»

ثم زم هيلاسيلاسي شفتيه، وانسكبت الدموع على الرغم منه.. قال أحد المقربين إليه: «لماذا تبكي يا صاحب الجلالة ..»

- «لأني مع كل ذلك أشعر أني عاجز.. لقد قتلت إياسو لكني لم أزل أرهبه.. أشعر أنه يتعالى عليّ ويسخر مني، وينظر إليّ وكأني طفل أحمق يلعب بالنار.. الحقيقة أنه لم يطفئ النار المشتعلة في قلبي ...! ابتسامة وجهه الميت الشاحب توجه إليَّ سخريات مرة

وإهانات بالغة، إن كلماته الجوفاء المقيتة تفرض نفسها عليّ، لم تزل تطن في رأسي ..»

– «لقد مات وانتهى الأمر ..»

– «أتظن أن الأمر انتهى فعلًا؟!»

– «بالتأكيد يا مولاي ..»

– «إنني أشك في ذلك .. سيبكي الناس من أجله كما لم يبكوا من أجل سقوط الحبشة . وسيتغنون باسمه في كل مكان .. هؤلاء البلهاء العاطفيون ما زالوا يحبونه برغم السنين الطويلة التي مرت ..

إن الأمر لن ينتهي بعد .. إنني أهرب إلى انجلترا، وإياسو – على الرغم من أنه جثة – سيبقى هنا .. سيقولون عنه إنه بطل . لأنه لم يهرب ..»

ابتسم أحد الرجال وقال : «لقد مات .. هرب من الدنيا كلية .. إنك تجسم الأمور ..»

أفاق «هيلاسيلاسي» إلى نفسه وقال : «إنني أشعر بإرهاق شديد، لم أنم ليلة أمس .. هيا بنا ..» .



عندما أعلن نبأ موت إياسو ، هرعت الجموع إلى الشوارع .. كان يومًا مشهودًا .. « هيلاسيلاسي » يبحث عن مخرج كي يهرب، والملايين تتجه إلى حصن غراموليتا باحثة عن قبر الشهيد العظيم .. الأسطورة الخالدة على الشفاه ..

هرب الثعلب والعار وراءه

وإياسو ...

لم يزل يشدو بحق الضائعين ..

الرياض الخضر تبكي همته ..

والنداء الحر في سفح الجبل

ومواويل الرجال ....

إنهم يبكون في الليل الطويل

ليل « هيلاسيلاسي » الخائن العربيد ..

ذلك الظل الرهيب ...

وحكايات قديمة ...

وحكايات جديدة ...

وأساطير شجية ..

عن فتى الأحراج .. عن نور الحياة

عن إياسو صاحب القلب الكبير ..

التحيات إليك ..

يا أبا الأمة ..

يا ربيع الحب .. يا إياسو ..

هرب الثعلب والعار وراءه ..

صفحة سوداء ، فالليل البهيم ..
مثل أوحال الخطيئة ..
هرب الثعلب والعار وراءه ..
فلك المجد إياسو ..
يا أبا الشعب الجريح ..
يا صلاة المتعبين ..
يا أماني التائهين ..
يا ربيع الحب ..
يا رمز الخلاص ..

. . . ودارت الأيام ، فتحول « إياسو » إلى أسطورة تتناقلها الأجيال .. وبقي حيًا في القلوب وسيبقى إلى أبد الآبدين ... أما « هيلاسيلاسي » فقد أصبح عبرة للمعتبرين .. بقي الناس يلعنونه إلى حين ، ثم نُسي مع المنسيين ...

